3 me Année, No. 89.

Lundi-18-3-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢ عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

العـــدد ٨٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ — ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة		
٤٠١	بلاد الشكوى	الأستاذ عبد العزيز البشرى
٤٠٤	عروس ترف إلى قبرها	الأستاذ مصطفى صادق الرافعى
٤٠٦	السفارات الخلافية والسلطانية	الأستاذ محمد عبد الله عنان
٤١٠	الانتحـــار	الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
٤١٢	قصة المكروب	الدكتور أحمد زكى
٤١٦	فى سجن الجامع الأموى	الأستاذ على الطنطاوى
٤١٩	الأوزاعى	عبد القادر على الجاعونى
٤٢١	محاورات أفلاطون	الأستاذ زكى نجيب محمود
٤٢٣	أنشودة عبقرية (قصيدة)	الأستاذ أنور العطار
٤٢٤	الأمير الشاعر خسرو	السيد أبو النصر الحسينى الهندى
٤٢٧	الفن الفارسى : للشاعر لورنس بنيون	ترجمة حسن محمد محمود
٤٢٩	زوج آخر ساعة (قصة) : للقصصى ريس ديفز	ترجمة على كامل
٤٣٤	ضوء جديد على قضية دريفوس . آثار ملكة سبأ	
٤٣٥	التنافس بين الفاشستية والهتلرية على استعباد الشعوب .	
٤٣٥	المسرح والسينما	
٤٣٦	فى نادى القلم العراقى . الحق والتاريخ	
٤٣٧	مأدبة تكريمية	
٤٣٨	هو ذا تاريخ انسان : للاستاذ خليل هنداوى	

بلاد الشكوى !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد تحدثك نفسك يوماً بأن تتعرّف الصّفةَ التى تميّز مصرَ من بين بلاد العالم ، والتى إذا أُطلقت انطلقت من فورها إليها دون أقطار الأرض جميعاً . وإن مما لا يعتريه الشك أنه ما من أمةٍ إلاّ ولها خاصّيّة تستقلّ بها عن كل ما عداها من الأمم ، لا يَشرَكها فيها غيرها ولا يتّصف بها سواها ، وهذه الخاصية لقد تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد ، ولقد تتصل بالتاريخ ، ولقد تتعلّق بالتصرف فى سبب من أسباب الحياة ، أو بالاستئثار بالتبريز فى فن من الفنون ، أو بغير ذلك من وجوه الفروق المختلفة بين أصناف الناس ، فاذا قُدر المستحيل ، أو قُدر النادرُ الذى يجاور المستحيل ، ولم تتفرّد إحدى الأمم بما يشخّصها من تلك الأسباب الكثيرة ، فلا أقلّ من أن تختص فى طبيعة أرضها وسمائها ، وجوها ومناخها ، بما يحقّق لها هذا المعنى حتى يتّسق لها هذا الوجود الخاصّ فلا تختلط بغيرها من العالمين . وتلك من حسن الكون التى لا ينشز عليها خَلق من الكائنات أبداً !

ونعود فنفرض أنه لقد تحدثك نفسك بتعرّف هذه الخاصيّة

التي تتفرّد بها مصر دون سائر أمم الأرض . ولعل أول ما ينحطّ عليه ظنّك أنها بلادٌ زراعيّة طوعاً لسخاء أرضها بألوان الغلّات ، ومهارة سـواد سكانها في فنون الزراعة وفلح الأرض وحسن تعهدها ، واستنباتها على خير الوجوه . إلى أن أهلها ، في الجملة ، لا يتكئون على سبب من أسباب العيش التي يتكىء عليها كثير غيرهم ، كالتجارة ، والصـناعة ، وصيد البحر أو البرّ ، فإذا هي عالجت شيئاً من هذا فإنما تعالجه بالقدر الذي ينتظمها في مؤخرات الصفوف ! إذا ميّزتَها بأنها أمة زراعيـة ، فالأمم الزراعية في العالم كثير !

ثم إنها ليس لها حظ مذكور من علم ، ولا من فن ، ولا من قوة بدنية ، ولا من امتياز في كفاية حربية ، ولعل هذا يرجع إلى ظروفها التي لا خيار لها فيها لا إلى طبيعة أبنائها ، فالمصريّ معروف بالشجاعة في الحرب ، وطول الصبر فيها ، وشدة الجلَد عليها من قديم الزمان . ومهما يكن من شيء فليس لمصر الآن حظ مذكور في شيء من تلك الأشياء ، فضلاً عن أن يكون لها به تفرّد واستئثار ، بحيث إذا أُطلقت صـفته عرف الناس أن مصر هي المقصود به دون سائر البلاد

ولقد تطلب هذه المزية في تاريخ مصر القديم ، وحضارتها التالدة ، وما سلف لها من مجد ما برح يُثقل مناكب التاريخ . ألا فاعلم أن مصر لا تستأثر بهذا ولا تستقل به ، فهـذه الصين لها حضارة لعلها أقدم من حضارة مصر ، وهـذه أمة اليونان وما أدراك ما حضارة اليونان ، وعلومها ، وفلسفتها ، وفنونها ، وعظمتها الحربية . ومجدها الذي طاول السماء . فانظر إلى ما صارت إليه الآن ، وكيف تغيّر لها وجه الزمان !

وهذه أمم لقد كانت لها حضارات فخمة ، وكانت لها قوة لا تعـدلها قوة ، وسَطوة في أمم الأرض دونها كل سَطوة ، فدارت عليها رحى الزمان حتى طحنتها طحناً ، وأحالتها في الخَلق عِهنا ، ثم ذرّتها في الهواء ، ولم يُصبح لها من الآثار ، إلاّ ما قيدت الصحف من مأثور الأخبار . وأين منا الآن فينيقيا وشور وبابل وغيرها من دول لم يدرك شأنها شان ، ولم يُدانِ سلطانها في الأرض سـلطان ! . ومهما يكن من شيء فالوصف بعظمة الماضي ، وجلالة التاريخ ، وفخامة المجد التليد ، ليس مما يجدي المصريين في هذا الباب ولا يُفيد !

* * *

أرجوك ياسيدي الطّلعة ألاّ تجتهد بطول البحث والتحري ، وشدة الفحص والتقري ، فانك ، في الغاية ، لن تخرُج بشيء من هذه المظان التي ترجو أن توافقك فيها طلِبتك ، ولن تُصيب لمصر في هذه الأيام من الصفات ما يقع عليها على جهة التعيين ، ولو فتشت نجوم السماء ، ونقضت كل ما على ظهر الأرض من الحصباء !

على أنني متبرع ، لوجه الفضول وشهوة التطلع ، بأن أهديك إلى الخلة التي تختص بها مصرُ في هذا الزمان وتستأثر ، بحيث لا يشاركها فيها مشارك ، ولا ينازعها عليها منازع . وبحيث لو حُشرت الخلائق كلها في صعيد واحد ؛ وبُعث معهم كل من لحقهم الدثور ، وجميع من غيبتهم القبور ، ومن نهشتهم وحوش البر ، وسباع الطير ، والتقمتهم الحيتان في جوف البحر ، من مهلِك عادٍ وثمود ؛ ومقتل أصحاب الأخـدود ، وصحّت فيهم أيُّ الأمم الآن صِفتها كيت ؟ لأجابوك في نفَس واحد : هي مصر !

وهذه الخلة التي تمتاز بها مصر اليوم وتنفرد دون سائر أمم الأرض جميعاً هي **الشكوى** ! نعم هي **الشكوى** ! . وإنني أتحدى من شاء ، وأخاطر من شاء على ما شاء ، إذا زعم أن هناك أمة أشكى من مصر ، أو أن هناك خلقاً من خلق الله يشكون بنسبة $\frac{1}{8.....}$ مما يشكو المصريون !

كل هيأة في مصر تشكو ، وكل طائفة فيها تشكو ، وكل جماعة تشكو ، وكل فرد يشكو . ما تنقطع لأحد من هؤلاء شكوى ما عاقب الليلُ النهار ، حتى لو قُيّض لعالم مخترع مثل السنيور مركوني أن يُحيـل جميع المصريين إلى معنى من المعاني ، لاستحالوا إلى شكوى يطن في الآفاق طنينها ، ويئن في الأجواء أنينها ، حتى لو كانت ملائكة السماء خلقاً مثلنا ، يجري عليهم ما يجري علينـا من الضجر والقلق ، ويُدركهم ما يدركنا من السهر والأرق ، لقضوا من شدة هتاف شكوانا آلاف الأعوام لا تذوق جفونهم الغُمض ولا يزور عيونَهم المنام ! . ولكنهم ، لحسن حظهم ، أيقاظ على الدهر ، ما يهفو بهم التعب إلى ضجعة ، ولا يضطرهم النَّصب إلى هجعة !

لا ترى أحداً فى مصر إلاّ يشكو ، ولا تنقطع له شكوى على الزمان : هؤلاء الموظفون ! أرأيتهم قد انقطعوا يوماً واحداً عن شكواهم ، وبث مظلمتهم وعظيم بلواهم ؟ . الدرجات الدرجات ! . العلاوات العلاوات ! . الترقيات الترقيات ! . ارفق يا حكومة ما حل بنا من حيف ، فقد حبست عنا علاوات الشتاء ! وأبطأت علينا فى علاوات الصيف !

وهؤلاء الحجاب والسعاة ، لا تراهم يدعون كل يوم إلا بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، لأنهم أكثر خدام الحكومة تعباً ، وأحقرهم مرتباً ، وهيهات أن تفى بضعة الجنيهات ، بما يزحمهم من وجوه المطالب فى وجوه الحاجات ، وقد أثقلتهم النفقة على الأهل والولد ، بعد ماعم الغلاء هذا البلد ، ولو كانت الحكومة على شىء من الانصاف ، لزادت مرتباتهم أضعافاً على أضعاف !

وهؤلاء رجال البوليس لا يفتأون يشكون الظلم اللاحق ، والجور الحائق ، فأعمالهم ثقيلة ، ومهماتهم جليلة ، ومع هذا فمرتباتهم قليلة ، وعلاواتهم ضئيلة ، ودرجاتهم هزيلة . والترقية الى الدرجات مما يحتاج الى طىّ الأحقاب ، ودون ذلك مَشيب الرجل بل مشيب الغراب ! وهذا والله ما لا ينبغى أن يعامَل به حَفظة النظام ، ومن يضحون براحتهم وأرواحهم فى إقرار الأمن والسلام !

أما معاونو الادارة ، فلا تسكن لهم شكوى . تارة بتقديم (العرائض) وعلى ألسنة الصحف تارة !

ورجال القضاء أهليّهُ وشرعيّهُ ، لا يفترون عن المطالبة بتعديل (كادر) الدرجات ، وتحسين نظام العلاوات ، حتى يتسق ما يتقاضون من الرواتب ، لما يتقلدون من رفيع المناصب ، ولا شك أن من أشد الاجحاف ، أن تسوم الظلمَ من تَقْتَضيه القيام على العدل والانصاف

وهؤلاء حَملة الشهادات ممن لم تستخدمهم الحكومة فى مناصبها ، هيهات أن تبطُل لهم شكاية ، أو تَفتُر لهم دعاية ؛ فاذا استُخدموا استأنفوا الشكوى من قلة الراتب ، وسألوا الحكومة أن تمنحهم من الدرجات ، ما يكافىء ما أحرزوا من عليا الشهادات !

أما المعلمون فى التعليم الأولى بجميع ضروبه وأشكاله وألوانه ، فهؤلاء لا ينقطع لشكاياتهم مَدَد ، ولا يحصيها عدد ، فهم كل يوم يُعطرون المعارف (بالعرائض) امطاراً ، ويُرسلون منها على الصحف وابلاً مدراراً . حتى أضحى المرء لا يشق صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية ، أو شهرية ، إلا رأى الشكايات تنفذ اليها من كل أقطارها ، وتجرى فى جميع أنهارها ، وحتى أصبح خلوّ صحيفة واحدة من ذلك مما يثير الرّيب ، ويدعو الى أعجب العجب !

هذا بعض ما يكون من الموظفين ، أما التلاميذ وأولياء التلاميذ ، ففى كل يوم شكوى من ضيق المدارس بالوافدين ، ومن المصروفات المدرسية ، ومن رسوم الامتحانات العامة ، ومن صعوبة أسئلة الامتحان ، ومن الدرجات التى تشترط للدخول فى امتحانات اللاحق ، وهكذا مما لا يبرح يَطنّ فى الآذان ، ما تعاقب المَلَوان ، وطويت صحائف الزمان !

* * *

والأهلون الأهلون ! لا ترى بلداً فى بلاد القطر كله إلا يشكو بعضُ أهله ، على الأقل ، من عمدته ، ويُسرف فى اتهامه بالظلم والجور ، وايثاره الهوى فى معاملة الناس ، وغفلته عن صيانة الأمن ، ومصانعته لسرّاق الليل . وهكذا . فاذا لم تنفذ التهم اليه من أىّ باب ، طلبوا ازالته لأنه (فقد النصاب) ! وحسبك أن تزور يوماً وزارة الداخلية لترى من هذه العجب العجاب !

وهذا النيل إذا أقبل ، فهل تسمع من أى بلد إلا مُوجع الشكوى . من احتباس الماء عن الأرض حتى عم الشرق ، أو أن الماء طغى على الزرع حتى غمر الساق والورق !

وهؤلاء الأزواج يشكون الزوجات ، وهؤلياء الزوجات لا ينين عن شكاية الأزواج ، وهؤلاء آباء يقاضون الأبناء ، وأبناء يَستَعدُون القضاء على الآباء ! . وحسبك أن تطوف يوماً ببعض محاكم الشرع لتستيقن أن الحياة العائلية فى هذه البلاد قد تصدّعت أركانها ، وتداعى بنيانها ، وأنها عما قليل ستحُور أطلالاً بالية ، وأنقاضا من بَنِيّات الأمم الخالية ! .

ولا تنس الأحزاب واتهامها الحكومات بسوء الحكم وخُلف الوعود ، وشكوى الحكومات مما يقابَل به ما تبذل من الجهود ، من النكران وشدة الجحود ! .

(البقية فى أسفل الصفحة التالية) .

عروس تزف الى قبرها

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تُسمى أياماً

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنتسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة الى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها

أيامُ الصَّبيِّ المَرِحةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورةِ ؛ فان كانت مُفرِحةً جاءت حاملةً فرَحَيْن ، وإن كانت محزنةً جاءت بنصف الحزن

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بقُوًى مختلفة ، منها الشمسُ والهـــواءُ والحركة ، ومنها الفرحُ والنسيانُ والأحلام !

* * *

ونشبتْ العذراءُ وأُفرِغَتْ فى قالب الأنوثة الشمسى القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهر الغَضّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتها تِمثالا للظَّرف ؛ وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تُجمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحنَانِ وجمالِ النفس ؛ وما أكرم يد الطبيعة عند ما تُسَهِّرُ العذراءَ من هذه الصفات سَهرَها الانسانى !

* * *

ولو قد ذهبتُ أسرد لك جملةَ الشاكين والشاكيات ، والباكين على سـوء حالهم والباكيات ، لما اتسعت صحائف (الرسالة) ، لاستيعاب هذه المقالة

ومهما يكن من أمر ، فلعلك قد اقتنعت الآن بأن أصدق وصف لمصر فى هذا العصر ، وأن أدق تعريف ينطبق عليها دون سائر الأمم هى أنها بلاد الشكوى !

ولعلنا نوفق قريبا الى إتمام المقال ، بالبحث عن علة هذه الحال ؟

عبد العزيز البشرى

وخُطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر

وماتت عذراءَ بعد ثلاث سـنين ، وأُنزِلَتْ الى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمرَ قلبٍ يُقطِّعُه المرض ، يتنظرون به الفُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقىٌّ لأنينٍ استمر ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزوناً بأوّله فى ضبطٍ ودِقة ؟

أكانت تلك العذراءُ تحملُ سرّاً عظيما سيُغيِّر الدنيا ، فردّت الدنيا عليها يوم التهنئةِ والابتسامِ والزينة — وهو يوم الوَلولة والدموع والكفن ؟

— ٢ —

واهاً لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدّةُ أقدار ؟ واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سرٌّ يومه ، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحه ، وليس اليه لاهذا ولا هذا

وفى اليوم الزمنىّ الواحد أربعمائة مليون يوم إنسانىّ على الأرض ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الانسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . . !

وكلُّ إنسان لايتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضيءُ المكانَ المظلمَ فى قلبه . والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تنير القلبَ الذى لايضيئُه إلا وجهُ محبوب

وفى الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تكبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تعظِّم بالنفس وتصغِّر بالدنيا ؛ وذهبُ الأرض كلُّه فقرٌ مُدْقِعٌ حين تكون المعاملة مع القلب

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرك الالهىُّ إذا أكبرك الانسان !

* * *

ويا عجبا لأهل السوء المغترّين بحياة لابدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضـة ؛ وهل أعجبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الانسان الى آخرها هو أوّلُ فكرهِ فى حقيقتها ؟

فعند ما تَحينُ الدقائقُ المعدودةُ التى لا تَرقُمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المحتضَر . . . عنـد ما يكون مُلكُ

الملوك جميعاً كالتراب لا يشترى شيئاً البتّة . . . .

. . . . ماذا يكون أيها المجرم بعد ما تَقْتَرِفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجند والقضاة ، وأمامك الشريعة والعدل ؟

* * *

أعمالنا فى الحياة هى وحدها الحياة ، لا أعمارُنا ولا حظوظنا . ولا قيمة المال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هى معاً — إذا سُلبَ صاحبها الأمنَ والقرار ! والآمنُ فى الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيدُ فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السموات

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبها وفيها (العدّاد) ، ما تتحرّكُ من حركةٍ إلا أشعرَته فَعَدّها ؟ وكيف يمكن أن يكْذِبَ الانسان ربَّه وفيه القلب ؛ ما يعمل من عملٍ إلا أشعره فعدّه ؟

— ٣ —

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام

أفرأيت أنتَ الفتى عندما يُدْبِرُ عن إنسان ليتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ! أرأيتَ الحقائق الجميلة تذهبُ عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الانسانَ حين تتحوّل الحياةُ عن جسمه الى الاقامة فى فكره !

وما هى الهمومُ والأمراض ؟ هى القبر يستبطىء صاحبه أحياناً فينفض فى بعض أيامه شيئاً من ترابه . . . !

رأيتُ العَروس قبلَ موتها بأيام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فَرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للرُّوح ، تَظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَدَاع !

وتحوّل الزمنُ إلى فكرٍ مريضة ؛ فلم تَعُد تعيشُ فى نهارٍ وليل ، بل فى فكرٍ مضىءٍ أو فكرٍ مظلم !

يا إلهى ، ما هذا الجسمُ المتهدّم المقبلُ على الآخرة ؛ أهو تمثال بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثقتْ أنه الموت ، فكان فكرها الالهىّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد ؛ عليه طَيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الانسانية متى عبّرت لا تعبر إلا بالوجه

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هى ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشكةٌ أن تنتهى ! ابتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ السجين قد رأى سجّانه واقفاً فى يده الساعة ، يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : « إنطلِق ! »

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأنى آتٍ من الدنيا . . . ! وتَنسّمتْ منى هواءَ الحياة ، كأنى حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض المُدنف ، يعرف أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنىً أبداً إلا العافيـة ؟ من غيرُ المريضِ المشرفِ على الموت ، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعها للمريض أهلُه وأحبّاؤه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحت جدارٍ يريد أن ينقض ! وكانت قلوبهم من فزعها تَنبضُ نبضاً مثلَ ضربات المعاول

وباقتراب الحبيب المحتَضَرِ من المجهول ، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود فى مثل حَيرَةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرّك ليمنعه أن يذهب ! وتمروه فى ساعة واحـدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيئُ له جلالَ الحس الذى يشهد به جلالَ الموت !

* * *

وحانت ساعةٌ مالا يُفْهم ، ساعةُ كلِّ شىء ، وهى ساعةُ اللاشىء فى العقل الانسانى ! فالتفتتْ العروسُ لأبيها تقول : « لاتحزنْ ياأبى . . . » ولأمها تقول : «لا تحزنى ياأمى . . . ! »

وتبسمتْ للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هى أيضاً ؛ تقولها : « لاتبكى . . . ! » وأشفقتْ على أحيائها وهى تموت ، فاستجمعتْ روحَها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأترك ذكارى بينكم تذكار عروس ! . . . »

ثم ذكرت الله وذكرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » وكررتها عشرا ! وتملأت روحها بالكلمة التى فيها

نور السموات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرةً تتلألا حتى وهى فى أحزانها

ثم استقبلت خالق الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار ، ألقت اليهم تحيةً من ابتسامتها ، وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى زُفَّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يباركْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ فى الطريق ، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أرَ هذا الاعلان مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائطٍ عليه الاعلان : « مبروك . . . ! »

طنطا

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

فى ٢٢٠ صفحة بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من ادارة مجلة الرسالة

٢٢ شارع البدولى - القاهرة

ومن سائر المكاتب وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً ما عدا أجرة البريد

صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافية والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين ، فأوفد الى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علماء عصره ، يجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف ، وأنزل بأحد قصور الخلافة ؛ وأدهش البلاط برائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع متويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببلاط الخليفة ، بالعودة إلى قسطنطينية . فأفلح السفير فى تحقيق الثانية ، ولم يفلح فى تحقيق الأولى ؛ ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالأفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقد الصلح ، زحف الأمبراطور على اراضى المسلمين ، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الأسلامية ، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم ؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الاثم والسفك ؛ وتروى التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة ، أرسل إلى الأمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يقر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتكب فيها ما ارتكب ، وهدمها حتى صارت قاعاً صفصفاً

عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالأنتقام وسار الى أراضى

الروم فى جيش ضخم ، وقصد إلى عمورية (أموريوم) أجل وأمنع مدن الروم فى آسيا الصغرى ؛ فهاجمها مراراً ، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً ، فضرب حولها الحصار ، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط فى يده . عندئذ اضطر الأمبراطور أن يسعى إلى طلب الصلح ، وأرسل بدوره سفارة إلى المعتصم ، على يد أسقف عمورية وكبرائها ، فأعلن المعتصم أنه لن يعقد الصلح ، ولن يمنح شروطاً للتسليم ، وأن الأنتقام هو غايته واعتقل السفراء ، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً ، ثم سقطت المدينة فى يد المسلمين ، وأبدى المعتصم ، كما أبدى تيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ففتك بالنصارى فتكا ذريعاً ، واسترق الناجون من الموت ، وأحرقت عمورية حتى غدت أطلالاً ، وهدمت حصونها وأسوارها ؛ ثم أطلق المعتصم سفراء الأمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره ، وردهم اليه بهذا الجواب : « نبئوا سيدكم بأنى أديت دين زبطرة »[1] وكان ذلك سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م)

واستمر الصراع وتبادل الغزو بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر . وفى عهد الامبراطور قسطنطين السابع الذى حكم طفلاً تحت وصاية أمه الامبراطورة زوى كاربوبسينا ، أرسل بلاط قسطنطينية الى الخليفة المقتدر بالله سفارة فى طلب المهادنة وتنظيم الفداء . وتصف لنا الرواية الاسلامية حوادث هذه السفارة ، فتقول لنا إن سفيرى ملك الروم وصلا الى بغداد فى المحرم سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، فاستقبلا بترحاب وإكرام ، ودخلا على الوزير فى أنخم حفل ونظام ، وقد اصطف حوله الجند فى أتم سلاح وزينة ، وأديا رسالة قيصر ، ثم أخذا الى الخليفة المقتدر فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند فى أروع زينة وأبهة وأديا رسالتهما ، فأجابهما الخليفة الى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء ، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء وعينه أميراً على كل بلد يدخله فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره ، وسير معه قوة من الجند ، وزوده بمائة ألف وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين ، فقام مؤنس بالمهمة وافتدى آلافاً من الأسرى[1] وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفارات التى تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجرى ، وطائفة من المعاهدات السلمية التى عقدت بينهما

وفى عهد الامبراطورة زوى أيضاً بعث حاكم كلابريا (قلوريه) البيزنطى رسله الى خليفة إفريقية الفاطمى (عبيد الله الشيعى) ؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدى الى الخليفة الفاطمى جزية سنوية كبيرة ؛ نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة فى قلورية ، واستمرت هذه المعاهدة مدى حين . وان كانت الجزية قد أنقصت خلال ذلك

* * *

ولنترك الآن علائق الدولتين العباسية والبيزنطية لنتحدث عن نواح أخرى من علائق الاسلام والنصرانية ، والسفارات التى تبودلت بينهما

لما قامت الخلافة الفاطمية بمصر ، غدت مصر منذ أواخر القرن الرابع ، قوة اسلامية جديدة تشترك فى قيادة الاسلام وتوجيهه فى المشرق . ولم تكن مصر قبل ذلك مركزاً هاماً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية ، لأنها لم تكن أكثر من ولاية خلافية أو دولة ثانوية تظلها الخلافة العباسية بسلطانها الروحى . على أنه كانت ثمة علائق مستقلة فى هذا العصر بينها وبين الدولة البيزنطية زعيمة النصرانية فى المشرق . وأشهر ما انتهى الينا من أخبار الحوادث الدبلوماسية بين الدولتين فى تلك الفترة سفارة الامبراطور رومانوس الأول (ارمانوس) قيصر قسطنطينية الى محمد بن طغج الأخشيد صاحب مصر (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، ورد الأخشيد على هذه السفارة . وحمل كتاب الامبراطور الى الأخشيد رسولاه نقولا واسحاق ، وفيه يطلب الامبراطور تنظيم مسألة الفداء ، وتسهيل المعاملات التجارية لرسله فى البيع والشراء ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين ، غير أن الامبراطور يعن فى نفس الوقت على الأخشيد بأن تنازل لمكاتبته مباشرة ، لأن مقامه كقيصر الدولة الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص

(١) Finlay; ibid; III-11

(١) ابن الأثير — ج ٨ ص ٣٤

الأخشيد بالمكاتبة لما نمى اليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وفيض عدالته ورحمته . وقد رد الأخشيد على رسالة الامبراطور بكتاب شهير من إنشاء ابراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وانتهت الينا صورته بأكملها . وفيه يرد الأخشيد على رومانوس بالشكر على ما أسبغ عليه من حمد ومديح ، ويقول : إنه مهما تكن منزلة ملك الروم فانه لا يرى بأساً أن يكتب اليه ، وقد كتب من قبل الى أقرانه ممن لا يرتفع الى منزلته ، فقد كتب القياصرة من قبل الى خمارويه بن أحمد بن طولون ، والى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها ؛ وينوه الأخشيد بأهمية مكانته وضخامة ملكه وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأنه يحكم الشام وفلسطين الى جانب مصر ، ويشرف على مكة منبع الاســـلام ، ومدينة الرسول ؛ وأنه لم يكن يحب أن يثير فى ذلك جدلاً أو ملاحظة لولا ما تقدم به الامبراطور . ثم يعبر الأخشيد عن حمده وثنائه للأمبراطور لما يبديه نحو الأسرى المسلمين من الرفق والرعاية ، ويصرح باجابته الى ما طلبه من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى ، ومن عقد الصداقة المتبادلة ، ومن تسهيل المعاملات التجارية لرسله التجاريين[1] ، وقد صيغت هذه الرسالة الشهيرة فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين حزم المخاطبة ، ورقة المجاملة . وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الاسلامية والدولة البيزنطية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى)

وكانت الدولة الفاطمية خصيمة الدولة العباسية تنازعها زعامة الاسلام فى الشرق ؛ وكانت السياسة البيزنطية تتجه يومئذ إلى الضرب بين الدول الاسلاميــة المختلفة والاستفادة من تنازعها وتنافسها ؛ فلما تضاءل سلطان الدولة العباســية ، وبرز سلطان السلاجقة فى الشرق ، اهتمت الدولة البيزنطية بمقاومة هذا الخطر الجديد ومصانعته ، وعملت على أن تكون محوراً للتجاذب السياسى بين هذه القوى الاسلامية المختلفة . وقد وقع بين مصر وقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس ، حادث سياسى شهير يوضح لنا طبيعة هذا التجاذب ، هو ســـفارة المستنصر بالله بالفاطمى لبلاط قسطنطينية وما كان من أدوارها ونتائجها . ففى ســنة ٤٤٦ هـ

(١) راجع نص هــذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى — ج ٧ ص ١١ — ١٨

(١٠٥٣ م) أيام الخليفة المستنصر بالله نكبت مصر بوباء ذريع استطال مدى أعوام ؛ واقترن الوباء بغلاء وقحط شديدين ، وأصيبت مصر بصنوف مروعة من الدمار والفوضى . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشــدة العظمى » . فأرسل المستنصر بالله (سنة ٤٤٦ هـ) إلى قسطنطين امبراطور قسطنطينية يطلب منه العون ، وأن يمده بالغلال والأقوات . ورأت السياسة البيزنطية فى ذلك فرصة سانحة لتحسين مركزها وعلائقها مع مصر ، التى كانت تهددها من البر والبحر ، فلبى الامبراطور الدعوى ، وتم الاتفاق على بذل العون المطلوب ؛ ولــكن قسطنطين توفى قبل تنفيذه ، وخلفته على العرش الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ هـ ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف ، فذهب إلى قسطنطينية ليحاول عقد الصلح مع بلاطها ، ولــكنه لم ينجح فى مهمته ، لأن السياسة البيزنطية آثرت عندئذ جانب السلاجقة الذين كثرت غزواتهم لأراضى الدولة ، ورأت أن تصانعهم وأن تسعى إلى مهادنتهم ، وسمح لرسول طغرلبك عاهل السلاجقة أن يخطب فى جامع قسطنطينية باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله . ولما وقف المستنصر بالله على ذلك رأى أن ينتقم بالقبض على أحبار القيامة (كنيسة قبر المسيح) فى بيت المقــدس ومصادرة تحفها وذخائرها ؛ واستمرت الخصومة بعد ذلك عصراً بين مصر والدولة البيزنطية[1]

وفى أيام الحروب الصليبية كثر تردد السفارات والمفاوضات بين مصر باعتبارها زعيمة الجبهة الاسلامية يومئذ ، وبين قادة الحملات الصليبية ، وكثر عقد العهود والهدن والمعاهدات . ولا يتسع المقام لاستعراض هذه المبادلات الدبلوماسية التى وصلت يومئذ إلى ذرى التشعب والاتساع ، والتى تملأ فراغاً كبيراً فى أخبار ذلك العصر ؛ ولــكنا نمثل لها بحادثين : الأول سفارة لويس التاسع (القــديس لويس) ملك فرنسا إلى سلطان مصر الملك الصالح حينما جاء إلى مصر على رأس حملته الصليبية (١٢٤٩م) وكتب إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية يطالبه بتسليم مصر وينذره بالويل إذا أبى ؛ وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً فى القاهرة ،

(١) راجع خطط المقريزى — الطبعة الأهلية ج ٢ ص ١٣٧

فتولى كاتبه بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر كتابة الرد ، وفيه يرد على الصليبيين وعيدهم وينذرهم بالانتقام ؛ والثانى سفارة من ملك فرنسا أيضاً إلى سلطان مصر يطالبه باعادة بيت المقدس إلى الفرنج ، وأن يفتح لهم ثغراً فى الساحل وتكون البلاد وولايتها وإدارتها مناصفة بين المسلمين والنصارى على أن يؤدى الفرنج لمصر نظير ذلك جزية سنوية ضخمة . والظاهر أن مرسل هذه السفارة هو فيليب الجميل ملك فرنسا ، وأن المرسل اليه هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنها وردت إلى مصر فى أواخر القرن السابع الهجرى أو أوائل القرن الثامن . وقد نقلت إلينا الرواية الاسلامية تفاصيل الحادث دون أن تعين تاريخه ، وذكرت أن السلطان غضب لجرأة الفرنج حين أبلغ السفراء رسالتهم ، وذكرهم بنكبة دمياط ، وأنذرهم بالويل والثبور وردهم أقبح رد[٢]

وقد كانت مصر منذ الحروب الصليبية محور الدبلوماسية الاسلامية ومجمعاً للعلائق بين الشرق والغرب ؛ وكانت علائقها مع الأمم النصرانية متشعبة النواحى والأطراف ، فمن بلاط قسطنطينية إلى الدول الايطالية ـ البندقية وبيزا وجنوه ونابولى ـ إلى مملكة فرنسا ، وإلى اسبانيا النصرانية ؛ وتاريخ مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية . وقد أورد لنا القلقشندى فى « صبح الأعشى » عشرات بل مئات من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية التى تلقى أعظم ضياء على طبيعة هذا العلائق ومداها . ونكتفى فى هذا المقام أيضاً بالتمثيل ببعض السفارات النصرانية إلى بلاط القاهرة ؛ فقد أرسل قيصر قسطنطينية مانويل باليولوج سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) كتاباً إلى الملك الناصر فرج ، على يد تاجر يونانى يدعى سورمش يؤكد ما كان بين والده (أى والد قيصر) وبين والد السلطان (الظاهر برقوق) من أواصر المودة والصداقة ، وبعث معهم عدة من البزاة هدية للسلطان ؛ ورجا السلطان فى كتابه أن يعامل الأحبار النصارى بالرفق والرعاية

ووردت على بلاط مصر سفارة أخرى فى نفس هذا العام (سنة ٨١٤ هـ) من « دوج » البندقية ميميكائيل ، وقدم السفير « نقولا البندقى » إلى السلطان ناصر فرج كتاباً من الدوج يبلغه فيه تحياته وثناءه على ما كان يلقاه التجار البنادقة من الرعاية وكرم الوفادة ، ولكنه يحتج على حبس بعضهم فى ثغر دمياط ، ويحتج بالأخص على ما وقع بالاسكندرية من القبض على « قنصل » البنادقة وأكابر التجار البنادقة ، وأحدهم إلى القاهرة مصفدين بالأغلال ، وينوه بأن هذه الأهانة إنما هى إهانة له بالذات (أى للدوج) ويرجو السلطان أن يعدل عن هذه السياسة إلى الرفق بالقنصل والرعايا البنادقة ، لتحصل الطمأنينة للتجار ويكثرون من التردد على مصر[١] . وهذه الوقائع التى يشرحها الدوج فى رسالته إنما هى حدث دبلوماسى محض ؛ وقد صيغت فى أسلوب رقيق ينم عما كان لمصر يومئذ من عظيم الهيبة فى نفوس الدول النصرانية ؛ وفيها يستعمل قلم الترجمة السلطانى كلمة « قنصل » ترجمة للكلمة الافرنجية المماثلة ، وهى كلمة ما نزال نطلقها اليوم فى اصطلاحنا الحديث على ممثلى الدول الذين يختصون بأعمال هذا المنصب

* * *

تلك طائفة متناثرة من السفارات الخلافية والسلطانية ، والموضوع مشعب الأطراف واسع المدى . بيد أن ما أوردناه من أحاديث هذه السفارات والرسالات المتبادلة يكفى لشرح كثير من خواص العلاقات الدبلوماسية فى تلك العصور . وهناك بالأخص ناحية أخرى من علائق الشرق والغرب والأسلام والنصرانية لم يتسع المقام للتحدث عنها : تلك هى علائق اسبانيا المسلمة (الأندلس) بأسبانيا النصرانية وبالأمم الفرنجية الأخرى ؛ فهذه العلائق وحدها تملأ صفحاً فياضة من تاريخ الدبلوماسية الاسلامية ؛ وقد كان عهد الخلافة الأموية بالأندلس عهداً زاهراً فى تنظيم هذه العلائق ففى عصر الناصر لدين الله ، ثم ولده الحكم المستنصر ، انهالت وفود الأمم النصرانية وسفاراتها على بلاط قرطبة ؛ فكانت تستقبل فى قرطبة فى أيام مشهورة ومراسيم شائقة بهرت أمم العصر وقصوره ؛ وكان تقاطرها على قرطبة فى ذلك العصر الذى بلغت فيه الأندلس ذروة العظمة والسلطان ، شاهداً بتطبيق هذه الخاصة التى أشرنا اليها فى فاتحة هذا البحث ، وهو أن اتجاه السفارات السياسية من الغرب إلى الشرق ومن الأمم النصرانية إلى الأمم الاسلامية كان فى معظم الأحيان شاهداً بتفوق الشرق والأسلام فى القوة والعظمة والسلطان

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ و ١٢٤

(٢) راجع حوادث هذه السفارة فى صبح الأعشى ج ٨ صفحة ٣٦ و ٣٧

الانتحـــــار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« نعم ، لابد مما ليس منه بد . وستنتهى الحياة على كل حال ، طال العمر أم قصر ، فلم لا أختمها بيدى وأستريح من هذا العذاب ؟ »

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه ، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها فى ظروفها ، وعنونها ، ونشفها ، وألصق عليها طوابع البريد ، ولو أنك فى هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هـذا العزم ، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث ، وإنما هى مسألة آلام فى معدته لم يبق له صبر عليها ، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها ، وما بقى فى البلد طبيب إلا استشاره ، وما قرأ إعلاناً فى صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه ، فذهب كل ذلك مع الريح ، وكانت معدته توسعه إيلاماً كلما أوسعها تطبيباً ، فكأنه لا يضع فيها أشفية ، وإنما يضع فيها إبراً أو أظافر ومخالب وأنياباً ! وما أكل شيئاً إلا نفخه وتخمر فى جوفه وفارت منه غازات ترتق إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصاً وراء قرص ، والغازات كما هى ، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكّها شئ ، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء ، وعزم آخر الأمر على الانتحار

وكانت له زوجة وبنون ، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم ، ولكن آلامه سوّدت عيشه ونغصت حياته ، وحرمته ما كان خليقاً أن يفوز به من المتع ، فالموت لا يفقده لذة موجودة ، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص ، ويتيح لهم أن ينعموا بماله ، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته

أما الرسائل التى أسلفنا الاشارة اليها فكتبها إلى الصحف ينبى نفسه فيها ، ويحذر قراءها من الاعلانات المغرية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع ، وأخرى كتبها إلى «النيابة» حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق ، فان « للنيابة » ولعاً بتقصى أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبة من هذه « النيابة » أوعارية ، فهو مسئول عنها قِبَلها !

ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر فى وسائله ، وأدواته ، ولكنه استقبحها جميعاً ، ولم يرض عن واحدة منها ، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقى بنفسه من فوق السطح مثلاً ، فقد يتحطم جسمه ولا يموت ! أو أن يغرق نفسه فى النيل ، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه ، أو قد تعلق جثته بشىء فتظل راسبة ولا يهتدى اليها أحد ! ولم ير أنه يطيق أن يسدد الى رأسه مسدساً ، أو إلى قلبه ، ولا أن يغمد فى صدره سكيناً أو يبقر به بطنه ، كلا ! هذه الميتات جميعاً قبيحة ، وفى صورها هوان وحماقة ؛ إنما الميتة الحسنة أن يستلقى على سريره ، ويضع إلى جانبه طشتاً على كرسى ، ثم يقطع شرياناً فيلحّ عليه النزف حتى يموت ، فى سكون وبلا ألم

واستغرب لما انتهى الى هذا الرأى ، أن يرى نفسه منشرح الصدر ، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التى أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه ! فهز رأسه متعجباً وقال : إذا كانت هذه هى البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن . وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى فى أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون ، ويثنون عليه بالذى « كان » أهله ! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء ، وكبر الأمر فى وهمه حتى خيل اليه أنه الآن راقد فى النعش ، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيعيه ! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم ! ولم تكن هذه ابتسامة السرور ، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر

ودق الجرس فجاءت الخادمة ، وكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة ، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم ، ولا أهل فيما يعرف ، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف ، وقال لها :

« اسمعى ! خذى هذه الرسائل وضعيها فى صندوق البريد . فاهمة ؟ وخذى هذا لك . »

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه ، فدهشت المسكينة ، فما لها عهد بمثل هذا الجود ، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت :

« لى أنا ؟ »

فوضع راحته على كتفها وقال : « نعم لك أنت . ولم لا ؟ إنك فتاة طيبة ، وأنا راض عنك »

فقالت المسكينة : « ولـكن ماذا تقول ستى ؟ إنها إذا رأته معى ستظنني سرقته »

فقال : « كلا . لا تخافى . اطمئني ! »

وأدناها منه وقبلها على خد ، ثم أدار وجهها ليقبّل خدها الآخر ، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه ، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى ، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال :

« عيب ياسيدى ، عيب ! أنا بنت يتيمة ، وأنت رجل كبير . . . تؤ . . تؤ . . عيب ! »

فبهت الرجل ، فقد كانت قبلته عن عطف أبوى ، ومن كرم النفس ومروءة القلب ، وساءه جحودها وسوء ظنها ، وأغضبة هذا التأويل ، فقال :

« ولـكن يا بنتى ماذا حصل ؟ أى عيب ؟ »

فقالت بصوت أعلى « أقول لك عيب ياسيدى ، لالالا . . أنا فى أمانتك . . حرام عليك يا سيدى ! وأنت رجل كبير »

ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث لها على هذا الاستهجان ؛ أما ابنه فرأى وسمع ، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذى يتغفلها ويزعم نفسه مريضاً مدنفاً ويروح يقبل الخادمات ! ومن يدرى ماذا يصنع غير غير ذلك ؟ ومن الذى يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا ؟

وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته ، لما رآها تلج فى الاستنكار وتأبى إلا أن تسىء تأويل الحادثة ، فخرجت ، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوة الهائجة :

« معلوم ! معلوم ! تدعى المرض ، وتقول لبعدوا عنى وخلونى أستريح ، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها ! ما شاء الله ! هل المريض يعانق الخادمة ؟ »

فطار عقل الرجل ، وله العذر ، وخطر له أن الخادمة هى التى ذهبت تشكو إلى زوجته ، وتذكر فى هـذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل ، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة ، ولـكن الغضب صرفه عن الموت ، وفتر الرغبة فيه ، وأحس أنه لا يريد أن يموت ، بل أن يميت — يقتل هذه الخادمة اللعينة التى يحسن اليها فتسيء اليه ، وتشنّع عليه ، وتحيل البيت قطعة من جهنم ، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول :

« أين هى ؟ أين هى ؟ »

وعرف أنها خرجت ، فانطلق وراءها ، ليسترد الرسائل منها ، ويرى له بعد ذلك رأياً فيها — نعنى فى الفتاة . وبصرت به الخادمة مقبلا ، ورأسه عار ، ووجهه مضطرم ، وكانت تحس فى قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنّت عليه ، فأيقنت أنه خرج وراءها هائجاً ، وأنه يطلبها ليضربها ، فراحت تعدو ، فلم يسعه إلا أن يجرى وراءها ، ولـكنها فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها ؟ فأخذ يصيح ويدعوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها ، وهى كلما حاول أحد أن يصدها تنفلت منه ، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها . وتبعهما أطفال الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء ، وأخيراً لحق بها الرجل ، لأن الناس استوقفوها ، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث

وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل ، وأن يقنعها بأن من يروم الانتحار لا يتبع الخادمة عينه

ونام صاحبنا فى ليلته تلك نوماً عميقاً هادئاً لا حلم فيه ، ولم يشعر بعمدته حتى ولا فى الصباح ، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح فى السنوات الأخيرة ، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئا غير قليل ، ولم يكن يفطر قبل اليوم ، وكان يدخن على ريق النفس ، ويستغنى بالقهوة عن الطعام ، فقال لزوجته :

يظهر أن الجرى نفعنى أمس . . والغضب أيضا ! لقد حرك دمى فى عروقى فزايلنى الفتور ، ونشطت . . . نعم إن حاجتى هى إلى ما ينشط جسمى ، فليت لى كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بى ظنك ، فتثور نفسى ! »

فضحكت الزوجة وقالت : « لقد كنت مجنونا ! وهل ينتحر إلا مجنون ؟ »

فقال : « نعم ، ولـكن الأطباء هم الذين أجنونى . والغريب أنى لم أجد واحدا من بينهم يشير علىّ بالرياضة — ليس عندهم إلا وصفاتهم التى لا تنفع . . . أقول لك ! سأكتب هـذا إلى الصحف ، وأفضح طب الأطباء »

ولـكنه لم يكتب ، لأنه شغل بالرياضة فى ناد قريب من بيته ، فتولينا نحن عنه ذلك ، فهل بلّغنا ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

٥ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسبلنزانى Spallanzani

صلة حديثه

حتى العلماء كانوا فى جانب انبعاث الأحياء من لاشىء . أعلن الطبيبى الانجليزى « رُس » بأسلوب توكيد تحسّ فيه يقين العالم وثقة العارف ، قال : « إن من يتشكك فى أن الخنافس والزنابير تكوّنت من رَوْث البقر فانما يتهم العقل والحس والتجربة » . حتى الحيوانات التى هى أعقد من هذه وأكثر أعضاء كالفئران لاحاجة بها الى الأمهات والآباء . ومن قال غير هذا فعليه أن يذهب الى مصر ليعرف كيف تعج الحقول بالفئران التى تكونت من غرين النيل فآذت السكان إيذاء كبيراً

سمع اسبلنزانى كل هذه الأقاصيص التى اعتقد صدقها أناس كثيرون ذوو خطر وعلم ، وقرأ قصصاً أكثر من هذه عدداً وأبعد فى الأغراب ، ورأى الطلبة تتنافس فتتخاصم وتتلاكم لتثبت أن الفأر لاحاجة به الى أب أو أم . ومع كل هذا لم يعتقد فى شىء مما رأى أو سمع . كان فى رأسه تحزب ، وفى قلبه تغرّض وتعصب ، وكثيراً ما نجد العلم يتقدم بمثل هذا التعصب والتحزب ، بفكرة ليست من العلم ، وليست مما يقال عادة فى العلم ، ولكن فكرة تخلق فى رأس الرجل العلمى خلقاً ، مبناها كرهٌ لخُرَعبلة شائعة وخرافة سائدة . رأى اسبلنزانى أن الانسان تكفيه النظرة الظاهرة الى الأمور ليقتنع بأن الحياة لاتوجد من عدم ، وبأن الأحياء لاتخلق اتفاقاً من الأوساخ والأقذار ، وإنما هى تولد عن سبب ، وحسب نظام وقانون . ولكن كيف السبيل الى إثبات ذلك ؟

وفى خلوة فى ذات ليلة وقع على كتاب صغير بسيط ساذج قرأه فأفاد منه طريقة جديدة لو اتبعها لعرف بها كيف تنشأ الحياة . كتاب لم يحاجج بالكلام ، ولم يتمنطق بالألفاظ ، بل اكتفى بالتجربة . وأى تجربة ؟ وأى حقائق تتضح منها وتبين فى سهولة ويسر ، وذهب عن صاحبنا النعاس ، ونسى أن الفجر يقترب ، وظل يقرأ ثم يقرأ . . .

قرأ فى الكتاب أن تَخلّق الدود والذباب من اللحم الفاسد خرافة أىّ خرافة ، وإن كثيراً من العقلاء الأذكياء يؤمنون بهذا الزعم على سخافته وبطلانه . وبينا هو يقرأ أتى على فقرات من الكتاب كادت تخرج لها عيناه من رأسه استغراباً لها واعجاباً بها ، على وصف تجربة بسيطة ذهبت بالخرافة من نفسه دفعة واحدة ولغير رجعة

وقال لنفسه وهو يتخفف من بعض ملابسه ويميل بعنقه الغليظ الى ضوء الشمعة : « إن « ريدى » هذا الذى كتب الكتاب رجل لاشك عظيم . انظر كيف هو يحل المشاكل حلاً غاية فى البساطة . أخذ قِدرين ووضع بكل منهما قطعة لحم ، ثم غطى أحدهما بغطاء خفيف ، وترك الآخر مكشوفاً . ثم أخذ ينظر ، فوجد الذباب يدخل الى اللحم فى القدر المكشوفة ، وبعد زمن قليل وجد بها الدود ، وبعد زمن آخر وجد بها ذباباً جديداً ، ثم نظر الى القدر المغطاة فلم يجد بها دوداً ولا ذباباً (١) . فالأمر بسيط جداً . فالمسألة مسألة الغطاء الذى يحول بين اللحم والذباب وتجربة بسيطة جداً ، ولكنها تدل على ذكاء كبير ، فان الناس تناقشوا وتجادلوا وبُحّت أصواتهم آلاف السنين ، ولكنهم لم يهتدوا الى هذه التجربة البسيطة »

وفى الصباح لم يستطع « لازارو » صبراً ، فأسرع الى المعمل يطلب حل الأشكال ، لا فيما يختص بالذباب ودوده ، ولكن فيما يختص بالأحياء المكرسكوبية الصغيرة . فان الأساتذة العلماء كانوا قد بدأوا يقولون إنه قد يجوز أن الذباب يخرج من بيض ، ولكن الأحياء التى تدقّ عن البصر تأتى من ذات نفسها

وأخذ اسبلنزانى يتعلم فى عثار كثير كيف يربى تلك الأحياء ، وكيف يستخدم المجهر . فجرّح يديه وكسر قبابات كبيرة ثمينة ؛ وكان ينسى أحياناً أن يمسح عدساته وينظفها ، ثم ينظر من خلالها الى تلك الحيوانات الصغيرة ، فلا يراها إلا بمقدار مايرى السمك الصغير فى الماء بساحل البحر وقد عكّره بتحريك قاعه ؛

(١) يقصد الدود الذى يتطور فيصير ذباباً

ولم يكن يبالي أن يتحدث عن أخطائه ويقصف بالضحك منها ، فلم يكن في خلقه ذلك الجمود وتلك الشراسة التي اتصف بها « لوقن هوك » . وكان مندفعاً متهوراً ، ولكنه برغم اندفاعه وتهوره كان لحوحاً لجّاجاً ، لاينعطف نحيبة ولا يثنيه يأس ؛ قام ليفضح تلك الأكاذيب التي يحكونها عن تلك الحيوانات الصغيرة فلن يقعد حتى يبلغ ما أراد ، ولكن مهلاً . « إذا أنا نصّبت نفسي بغية الوصول الى غاية معينة فلست والله بعالم ، إن العالم يجب عليه أول شيء أن ينزع من قلبه التعصب والتغرض ، وأن يتعلم أن ينقاد للحقائق التي تتكشف له الى حيث تسوق ... » وأخذ يدرس تلك الحيوانات بصبر طويل ، وأخذ يسوم نفسه قَصْدَ السبيل ، وينفي عنها الهوى بقدر الطاقة حتى علمها أن تنصاع للحق ولو كان مرّاً

واتفق في هذا الوقت أن قسيساً آخر اسمه « نيدم Needham » كان يسره أن يرى نفسه تَحْذَق فن التجربة ، وكان كاثوليكياً تقياً . وكان اسمه أخذ يذيع في انجلترا وأرلندا بأنه الرجل الذي يعرف كيف ينشيء تلك الأحياء الصغيرة في مرق الضأن من لاشيء . وأرسل الى علماء الجمعية الملكية البريطانية يصف لهم تجاربه ، فتفضلوا بالاعجاب بها

قال لهم إنه أخذ من قدر وهي تغلي بمرق الضأن مقداراً ثخيناً من هذا المرق ، ووضعه في زجاجة سدّها بفلّينة فأحكم سدّها فأصبحت بمعزل عن الهواء ، فلا تدخلها تلك الأحياء أو ما يمكن أن يكون لها من بيض . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب فوضع الزجاجة في رماد ساخن زيادةً في الحرص والتوكيد . قال الرجل الطيب : « وبهذا لاشك قد قتلت كل ما قد يكون بقي في الزجاجة من كائن حي أو بيض » . واحتفظ بهذا المرق في الزجاجة أياما ، ثم نزع سدادها ، وأتى بالعدسة فرأى — وما أخطر ما رأى — رأى المرق يعج بالأحياء عجيجاً

وصاح « نيدم » يقول للجمعية : « إن هذا كشف خطير أيّ خطير . إن هذه الأحياء لايمكن أن يكون مأتاها إلا من المرق ، فدونكم إذن تجربةً تثبت أن الشيء الحيّ قد يخرج من الشيء الميت » . وقال لهم فيما قال : إن الحساء يُصنع من الحب أو اللوز يقوم مقام المرق سواء بسواء

وثارت الجمعية الملكية والعالم المثقف لما علموا بكشف « نيدم » كشفُ صدق لا أقصوصةٌ كاذبة ، وحقيقة تجريبية لايأتيها الباطل من أمامها أو خلفها ، واجتمع أعضاء الجمعية يفكرون في جزاء « نيدم » بتنصيبه عضواً فيها ، وهي الجمعية الوقور المترفعة التي تمثل ارستقراطية العلم وتتضمن صفوة العلماء . ولكن في هذه الأثناء كان اسبلنزاني بعيداً في إيطاليا يقرأ خبر هذا الكشف المدهش ، وبينما هو يقرأ تقارب مابين حاجبيه ، وضاق حَدَق عينيه ، وأخيراً أبرق وأرعد وقال : « إن هذه الحيوانات لاتنشأ من لاشيء ، لا في المرق ، ولا في حساء اللوز ، ولا في شيء كائناً ما كان ؛ إن في هذه التجربة تدليسة أو خُدعة ، من الجائز أن « نيدم » لايعرف ذلك ، ولكن لابد أن هناك ثغرة أنا كاشفها لامحالة »

وبدأ شيطان التغرّض يستيقظ في نفسه ، وقام القسيس يشحذ سكينه لأخيه القسيس . وكان الأيطالي رجلاً شريراً سفاحاً يُغرَم بنحر الآراء التي يخاصمها ، فمن أجل هذا قام يسن سلاحه للانجليزي . وفي ذات ليلة ، وهو قائم وحده في معمله ، بعيداً عن جلبة الاعجاب التي تتحشى بها دروسه ، بعيداً عن زئاط الصالونات البهيجة حيث تتظرف له السيدات وتتلطف معجبة بذكائه وسعة علمه ، في تلك الليلة خال أنه وجد الثغرة التي طالما في تجارب « نيدم » . فمضغ ريشته ، وأمرّ أصابعه خلال شعره المشعث ، ثم قال : « لماذا ظهرت تلك الأحياء في مرق اللحم وفي نقيع الحب ؟ لأن « نيدم » بلا شك لم يسخن زجاجته تسخيناً كافياً ، لأن « نيدم » لم يحكم سدّ زجاجته إحكاماً كافياً »

وبدأ شيطان البحث الصادق يستيقظ في نفسه . فلم يذهب إلى مكتبه ليكتب لنيدم بالذي ارتأى ، وإنما فزع إلى معمله الترب قد تناثر في أرجائه الزجاج من كل صنف ، فأخذ من هذا الركن قبابة ، ومن هذا الدرج بذوراً ، ونفّض التراب عن مجمره ، وبدأ يمتحن موقع ظنه من الحقيقة ، فاما أن ينصره ، وإما أن يقهره . إن « نيدم » لم يسخن حساءه تسخيناً كافياً — وقد يكون من بعض تلك الأحياء أو من بيضها مايحتمل المقدار الكبير من الحرارة . من يدري ؟ وتناول اسبلنزاني قبابات من الزجاج كبيرة ، عظيمة البطن ، مستدقة العنق ، وأخذ يغسلها ويدلكها ويدعكها ، ثم جفّفها وصفّفها فبرقت على النضد فكانت كالجند لبس السلاح في ضحوة الصباح . ثم جاء بأصناف مختلفة من البذور ووضع شيئاً من كل صنف في قبابه ، ثم جاء بشيء من البسلة

وشيء من اللوز ووضع كلا فى قبابه ، ثم صب ماء فى القبابات جميعاً ، ثم صاح : « والآن لن أقع فى الخطأ الذى وقع فيه « نيدم » . فلن أغلى هذه الأحسية دقائق بل ساعة كاملة » ، وأوقد ناره ، فلما تجهزت تساءل : « ولكن ماذا أصنع لسد هذه القبابات ؟ أسدّها بالفلين ؟ ولكن هذه مهما أحكمت فلعلها لا تمنع أصغر الأحياء أن يتسرب إلى الأماء » . وأخذ يفكر : « لا . لا . بل أسيّح عنق القبابة فى النار فألحمه حتماً ، وأختم على الزجاجة ختماً ، فلا تعود هنالك حاجة إلى الفلين ، والزجاج لن يأذن لأصغر المكروب أن يتسرب خلاله »

وهكذا تناول قبابته البارقة قبابة قبابة ، وأدار عنقها الدقيق فى اللهب حتى ساح والتحم ؛ وكانت تسخن بعض هذه القبابات سخونة شديدة وهى فى يده فتحرقها ، فتسقط القبابة فتنكسر فيسخط ويلعن ، ثم يبدلها بغيرها . فلما أتم لحامها جميعاً صاح : « والآن فالى نار شديدة » . وظل ساعات يرقب القبابات ترقص فى ماء الغلايات ولم يغلها كلها مدةً واحدة ، فمن القبابات ما أغلاه دقائق . ومنها ما أغلاه ساعة كاملة

فلما بلغ منه الجهد ، وضاقت عيناه من التعب ، قام إلى أخيرة القبابات يخرجها من الماء والبخار يرتفع منها كأنها قطع اللحم المسلوق . وجمع القبابات كلها واختزنها ، واصطبر أياماً على أحر من الجمر يداور فى رأسه ما عساه أن يحدث فيها ، وقام بشيء آخر كدت أنساه ، شيء بسيط جداً : قام يكرّر ما صنع من جديد ، فجهز عدداً من القبابات كالتى سلف ذكرها ، ولكن بدل أن يلحم رقابها سدّها بالفلين ، ثم غلاها ساعة كاملة ، ثم اختزنها

ثم غاب عنها أياماً أمضاها فى قضاء ألف مشغلة من مشاغل الحياة التى لم تكن تكفى لاستنفاد نشاطه الجمّ الكثير . وكتب إلى العالم الطبيعى « بونت Bonnet » فى سويسرا ينبئه بتجاربه ، وقام إلى كرة القدم وأخذ نصيباً من اللعب ، وضرب فى الريف يطلب صيده ، وذهب إلى البحر يتلهى بسمكه ، وألقى دروساً فى العلم ، وحاضر طلبته فى كل ما هب ودبّ ، فى كل ما ثقل من العلم وخفّ ، وفى كل ما خفّ منه وطاب ، ثم اختفى فجأة . وتساءل الطلبة والأساتذة : « أين الأب اسپلنزانى ؟ » وتساءلت الهوانم أيضاً : « أين الأب اسپلنزانى ؟ »

الأب اسپلنزانى ذهب إلى قبابته

— ٣ —

ذهب أول شيء إلى قبابته الملحومة ، وكسر رقابها واحدة بعد أخرى ، وغاص فى مرقها بأنبوبة طويلة رفيعة لينال منه شيئاً ، ثم لينظر هل تكونت فيه تلك الأحياء الضئيلة على الرغم من تسخينه إياه طويلاً ، وعلى الرغم من عزله إياه هذا العزل المُحكَم عن الهواء وما قد يعلق بترابه من الأحياء . لم يكن اسپلنزانى فى تلك الساعة اسپلنزانى المَرِح البشوش الضحوك . كان فى حركته بطء وفى وجهه وجوم . كان يتحرك كرجل آليّ صنعوه من الخشب ، وأخذ ينقط من المرق القطرة بعد القطرة تحت عدسته

وكانت تلك القطرات من القبابات الملحومة التى أغلاها ساعة كاملة ، وكان جزاؤه على كل متاعبه أنه رأى — لا شيء ! وبسرعة البرق توجّه إلى القبابات التى لم يكن أغلاها غير دقائق ، وإذا به يكسر رقابها ، وإذا بقطرات منها تحت عدسته ، وإذا به يصيح : « ماذا أرى ! » رأى فى مجال البصر الأدكن حُيَيْوِينات صغيرة منثورة هنا وهنا تسبح وتلعب شرقاً وغرباً . حقاً إنها لم تكن مكروبات كبيرة ، ولكنها كانت مخلوقات صغيرة تجرى فيها الحياة على كل حال . وتمتم اسپلنزانى لنفسه : « إنها تسبح كالسمك ! إنها صغيرة كالنمل ! » . وغاب فى التفكّر ثم قال : « إن هذه القبابات ألحمت إلحاماً فما كان لشيء أن يستطيع دخولها من الهواء . ومع هذا أجد تلك المخلوقات الصغيرة فيها . لا شك أنها مخلوقات كانت موجودة فى المرق ، فلم يكفِ لقتلها اغلاء الماء دقائق قليلة »

وذهب بأيدٍ راجفة إلى صف القبابات التى سدّها بالفلين — كما فعل خصيمه « نِيدمْ » — ونزع سدادها واحدة بعد أخرى . وما هى إلا ثوانٍ حتى غاص بأنبوبته فى مرقها ، وما هى إلا ثوان أخرى حتى حدّق بعدسته فى قطرات منها . وإذا به يثور ويصخب ويقوم عن كرسيّه فيمسك بكراسة قديمة ، فيكتب فيها على عجل ملاحظات مختصرة بخط كنبش الدجاج ، لو استطعتَ قراءته لوجدت معناه أن إحدى هذه القبابات ذات السداد كانت تتنفّش وتموج بالأحياء ! حتى القبابات التى أُغليت ساعة كاملة كانت « كالبحيرة تعج بالسمك الصغير والحوت الكبير » . وصاح يقول : « معنى كل هذا أن هذا « نِيدم » جاء بتلك الأحياء التى طفت بها من الهواء . وهذه نتيجة خطيرة فى ذاتها

ولكن أخطر منها هذه الأحياء يصمد بعضها للماء المغلى زمناً . فلا بد لقتله من اغلائه ساعة أو نحوها »

كان هـذا اليوم لاسپلنزانى من الأيام الضخمة العظيمة ، وللدنيا من الأيام المذكورة المشهورة ، ولو أن اسپلنزانى لم يكن يدرك كبره وخطره حق الادراك . إنه أثبت إثباتاً قاطعاً أن نظرية « نيـدم » نظرية باطلة ، وأن الحيوانات لا تنشأ فى هذه الدنيا الجارية من العدم . وأثبت ذلك بنفس اليقين الذى أثبت به « ريدى » العظيم أن الزعم بأن الذباب ينشأ من ذات نفسه فى اللحم زعم فاسد وحُسبان خاطىء . وفعل اسپلنزانى فوق هذا ، فقـد خلّص علم المكروب من ضياع محقق ، وانتشله من خرافة كادت تؤدى به إلى النسيان فالعدم ، فان العلميّين كانوا قد بدأوا يعتبرون علم المكروب صنفاً من العرفان المدلّس الذى لا يتقبل قواعد العلم الصحيحة وطرائقه المستقيمة

واستدعى اسپلنزانى فى هياجه أخاه نقولا وأخته كذلك ، ليخبرهما بتجربته الرائعة . وذهب بعيون واسعة الى تلاميذه يخبرهما بأن الحياة لا تنتج إلا عن حياة ، وأن كل حىّ لابد له من أب ، حتى تلك الأحياء الصغيرة الحقيرة ! إلحم قبابتك بما فيها من المرق فلن يدخل اليها شىء . وسخّنها تسخيناً طويلا تقتـل ما بها من الأحياء ، حتى تلك التى تستعصى على التسخين الهين القصير ! افعل ذلك وأنا ضمين لك ألا تجد بها حياً واحداً ، واختزنها وأنا ضمين لك أن تبقى خلواً من الأحياء إلى يوم يُبعثون . ثم ترك تلاميذه وذهب فكتب مقالاً بارعاً لاذعاً توجه فيـه إلى « نيدم » بالتقريع والسخرية . فمال عالم العلم واضطرب ، وثار واصطخب . وتجمع المفكرون فى الجمعيات العلمية بلندن وكوبنهاجن وباريس وبرلين ، وتجمهروا فى دورهم تحت أضواء المصابيح العاليـة وعلى أنوار الشموع الرفيعة ، وأخذوا يتساءلون فى لهفة : أيجوز حقاً أن يكون « نيدم » خاطئاً ؟

ولم يقتصر الجدل الذى قام بين اسپلنزانى ونيدم على الأوستقراطية من العلماء ، ولم يحتبس فى قيعان الجمعيات العلمية النابهة ، بل تسرّب من خلال أبوابها الغليظة الى الشوارع ، وتحسّس طريقه الى الصالونات الفخمة ، وودّت الدنيا لو أن نيدم صادق ، ومالت بقلبها الى مؤازرته . ذلك لأن الناس فى القرن الثامن عشر كانوا يميلون الى اللهو والدعابة ، والى التحرر من كل شىء ، والتشكك فى كل شىء ، والضحك من كل فكرة تنتسب للدين ، ورفض أى سلطان يهيمن على الكون . فلما جاءهم نيدم بأن الحياة تخرج اعتباطاً ، وأن الشىء ينشأ من لا شىء . صادفت الفكرة هوى فى قلوبهم ، فسُرّوا منها ، وضحكوا وسخروا من هـذا الآله المزعوم الذى لا يستطيع حتى تنظيم كونه ، والسيطرة على خليقته . وساءهم أن تكون تجارب اسپلنزانى واضحة هذا الوضوح ، ومقنعة هذا الاقناع ، فلم يستطع دحضها حُذّاق الكلام ، والبارعون فى اللعب بالألفاظ

(يتبع)

أحمد زكى

لن تشعروا بالغربة أبداً

على ظهر الباخرة

النيـــل

لأنها قطعة من وادى النيل تجرى فى البحار

يخفق عليها علم البلاد — وترعاها قلوب المصريين : أعدتها لخدمتكم

شركة مصر للملاحة البحرية

بكل أسباب الراحة والرفاهية

صالونات فخمة — قمرات فاخرة (Lux) بحمامات وصالونات خاصة

تليفونات اتوماتيكية — مطبخ راق — جراج للسيارات

عناية فائقة فى الخدمة — سهر دائم على راحة المسافرين

أجور السفر فى الصيف من الاسكندرية الى جنوا أو مرسيليا على السواء

١٦ جنيهاً للدرجة الأولى — ١٢ جنيهاً للدرجة الثانية — ٨ جنيهات للدرجة الثالثة

تخفيض مخصوص للذهاب والاياب ، تخفيض لتذاكر العائلات ، ولحضرات موظفى الحكومة رحلات منظمة كل أسبوعين يوم الخميس من الاسكندرية

ابتداء من يوم الخميس ٢٣ مايو سنة ١٩٣٥

احجزوا محلاتكم من الآن وخابروا فى ذلك المركز الرئيسى للشركة بعمارة بنك مصر بالقاهرة — وفرعها بالاسكندرية بشارع فؤاد الأول رقم ١٤ ومكاتب مصر للسياحة ومحلات كوك ومكاتب السياحة الأخرى

من صور الحياة فى دمشق

فى صحن الجامع الأموى . . .

للأستاذ على الطنطاوى

فى أمسيّةٍ طائقةٍ (من صيف سنة ٤٨٩هـ) خرج الناس — على عادتهم — إلى صحن المسجد الأموى ، فبسطوا فيه البُسُط ، وأسرجوا السُّرُج ، حتى (كاد المسجد يقطُر ذهباً ، ويشتعل لهباً) ، وأقبلوا عليه زُرافات ووحداناً ، يقضون بالصلاة حقّ الله عليهم ، وبالاجتماع والتعاون حقّ بعضهم على بعض ، ويعودون بثواب الله ، واطمئنان النفس ، وراحة البال

وليس أشهى إلى النفس ، ولا أحلى فى العين ، من صحن الأموى فى ليالى الصيف ؛ وإن المرء ليُطوّف ما يُطوّف ، ويتنشق عبير الأزهار ، ويسمع تغريد الأطيار ، ويصعد الجبال تتفجر منها العيون ، ويدخل الجنان تجرى من تحتها الأنهار ، ثم يعود إلى الأموى فيراه أجمل من ذلك كلّه ، ويجد فى نفسه حين يجلس فيه هزة طرب ، ونفحة أُنس ، لا يجدها فى شئ من ذاك . . .

وكانت عشية ريّحةً ، تنسم نسَماناً منعشاً ، فامتلأ المسجد بالناس وهم بين متوضئ يخلع رداءه فيلقى به على بلاط المسجد الأبيض الناعم ؛ ويسرع إلى قبة الماء ، وهى (فى وسط الصحن) وهى صغيرة مثمنة ، من رخام عجيب ، محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع . وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاسى ، يميج الماء إلى علو ، فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب (لجين) [1] وقد زينت جوانبها بالصابيح

ومصلٍّ يبتغى جماعة فلا يلبث حتى يجدها [1] فيقوم فى الصف خاشعاً ، يشغله جلال الله الذى يقف بين يديه ، عن الدنيا التى خلفها وراء ظهره . . .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ ، أو ينصت لقارئ ، أو يذكر الله مع الذاكرين ، أو مستند إلى اسطوانة من الأساطين ، أو محتب تحت رواق من الأروقة ، يقرأ فى مصحف ، أو ينظر فى كتاب ، أو يسبح على أصابعه ، أو يتفكر فى شأن من الشئون ، أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد ، ورقة النسيم ، ويكون من انتظاره الصلاة كأنه فى صلاة . . .

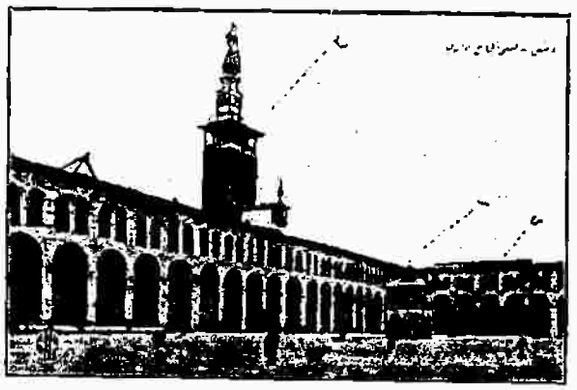

صحن الجامع الاموى : (١) القبة المسماة بالغباية وتحتها بركة الماء — (٢) قبة الساعات شرقى المسجد حيال المشهد الحسينى — (٣) منارة العروس (التى يؤذن فيها جماعة من المؤذنين ، وإنما يؤذن فى المنارات الأخرى مؤذن واحد)

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) فى شرقى المسجد ، رجل رثّ الثياب ، ماعليه إلا مرق مُرَدَّمه ، وخلقان بالية . يرنو بعينه إلى الناس تارة ، وينظر إلى المسجد أخرى ، فيقرأ فيه تاريخاً جليلاً ، يقرؤه فى هذه القبة الباذخة ، قبة النسر ، وهى (من أعجب مبانى الدنيا ، ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ، ذاهبة فى الهواء ، منيفة على جميع مبانى البلد) [2] (وليس فى دمشق شئ أعلى ولا أبهى منظراً منها) [3]

(١) هذا الوصف لابن بطوطة ، وقد زارها فى آخر الربع الأول من القرن الثامن ، وفوق البركة اليوم سدة جميلة قد يجلس فيها المؤذنون ، قائمة على أربعة أركان وأربع سوار من الرخام ؛ وقد أجرى إلى هذه البركة ماء الفيجة ، وهو ماء غاية فى العذوبة واللذة . ينبع من قرية الفيجة (وهى من دمشق على عشرين كيلاً) وعلى الينبوع آثار بناء نظم من أبنية الرومان . وأول من جر هذا الماء إلى دمشق ناظم باشا رحمه الله ، أحد ولاة العثمانيين ، فأجراه فى الطرقات فى أنابيب ، ثم جر قسم أكبر من الماء فى قناة تحت فى الصخر ، وأدخل البيوت والمساجد وكان تمام هذا المشروع الكبير متذعاً عين

(١) ومن نعم الله على الأموى أنه (إلى يوم الناس هذا) لا يخلو من صلاة قائمة من أذان الظهر إلى أن يغلق المسجد أبوابه ، فلا تنقضى جماعة حتى تشرع أخرى

(٢) ابن بطوطة

(٣) ياقوت . قلت : ولا تزال إلى اليوم كما وصفاها على ما استحدث فى دمشق من بنايات عالية ، فيها ما هو بست طبقات وما هو بسبع . . . وهى بجانب القبة كالطفل بجانب الرجل ، وتحت هذه القبة يجلس المحدث الأكبر فى البلد ، وآخر من جلس تحتها البدر الحسنى مد الله فى أجله ورزقه حسناته

وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس « منارة عيسى » لما جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويعجب من سموقها وارتفاعها . وهذه المنارة الغربية التي بناها المسلمون ، فأجادوا بنيانها ، ووضعوا فيها العجائب من براعة الزخرف ، ودقة النحت ، والضبط والاحكام . والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازّينت وأوقدت فيها المصابيح ، وقام في شرفتها المطلة على الصحن[1] «المؤقت» ليعلن دخول العشاء

* * *

منظر الاموي من الجهة الجنوبية : (١) قبة النسر — (٢) منارة عيسى (٣) المنارة الغربية — (٤) منارة العروس

ودخل المسجد قرويّ له مسألة . فسأل عن مجلس المفتين حتى دُلّ عليه عند قبة عائشة[2] فجاء فعرض عليهم مسألته ، فلم يجد عند واحد منهم جوابها . فذهب يدور على الفقهاء والمحدّثين يسألهم ، فلم يفز منهم بطائل ، فيئس منهم وهمّ بالخروج من المسجد . . . والفقير ينظر اليه ، ويعجب من حاله وحالهم .

(١) هذه الشرفة مخصصة اليوم للبسيط الذي تعرف به الأوقات ، وكان الذي صنع البسيط الشيخ علاء الدين علي بن ابراهيم الفلكي المشهور بابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧ هـ ، فطرأ عليه خلل سنة ١٢٩٣هـ فصنع الشيخ محمد الطنطاوي المصري الأزهري نزيل دمشق (وهو جد أبي) بسيطاً غيره ، وحسبه على الأفق الحقيقي ، وزاد فيه توس الباقي للفجر ، وأنزل القديم وجعل هذا مكانه في يوم مشهود ، وهو فيها إلى الآن ، قال في (الحدائق) : وهو (أي البسيط) موضوع شريف لا نظير له تفرد به الطنطاوي بعد ابن الشاطر

(٢) وهي غرفة عالية غربي المسجد ليس لها إلا باب صغير من الحديد تقوم على ثمانية أعمدة كبيرة من الحجر وفوقها قبة ، ولا طريق اليها الا على سلم ينصب حيال الباب ، وكنا نتحدث ونحن أطفال أن فيها كنزاً حتى فتحها الألمان — كما أذكر — في الحرب العامة . واستخرجوا منها طائفة من الكتب والمصاحف القديمة . ولا أحسبها تحوي الآن شيئاً له خطر

٢٧ ٤

وعنّ عليه أن ينصرف آيساً ، فأشار اليه . فلما جاءه قال : اعرض عليّ مسألتك . . .

فضحك القرويّ ، وصاح : أنظروا ياقوم إلى هذا المجنون ! يزعم أنه يجيبني عن مسألتي ، وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث ! فأقبل الناس على الصوت ، وطفقوا يتكلمون ، فقال قائل : دعْهُ فانه مجنون .. وقائل : لا عليك أن تسأله فلعلّ عنده علماً ... وقائل : سَلهُ واحمل جوابه إلى المفتين ، فانظر ماهم قائلون ؟

ثم سكتوا ، وسكت كلّ من في المسجد ، وانقطعت أصوات القراء والمدرّسين والذاكرين ، ولم يبق فيهم متكلم ، لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوّة ، وسمعوا : (الله أكبر..) تدوّي في نواحي المسجد ، تهبط عليهم من المآذن كأنما هي هابطة من السماء ، فيها روعة الوحي ، وجلال الدّين ، وجمال الايمان . . . فتقوضت المجالس ، ورُصّت الصفوف ، وتحاذت المناكب ، وقال الامام : الله أكبر . . . فاتت الدنيا في نفوسهم وانمحت منها الشهوات ، وطمست فيها الميول ؛ لأنه مهما يكن من كبير فـ . . . الله أكبر ! ولا إله إلا الله !

منظر الحرم من الداخل : ويبدو فيه ركنان من الأركان الأربعة الهائلة التي تحمل القبة وتحتها يجلس المحدث الأكبر — وتبدو سدة المؤذنين رقم (١) وسدة الأمير أو الحاكم رقم (٢) وباب المقصورة التي يجلس فيها الخطيب ، وقد اتخذها معاوية وكان لها باب (لا تزال آثاره واضحة) يؤدي إلى قصر الخضراء الذي كان وراء الجامع القبلي

فلما قضيت الصـــلاة ، عادوا إلى القروي ، فقالوا له : اذهب فسَلْ صاحبك . فذهب إليه ، فقال :

ياهذا ، زعمت أنك قادر على الجواب ، فهل أنت على قولك ؟

قال : أستعين بالله

قال : وقد أعجزتَ المفتين وحيّرتهم ، أفأنت تستطيع أن تجيب عليها ؟

قال : أستعين بالله

قال : هي كذا وكذا . . . قال الجواب كيت وكيت . . .

وابتدر الفقير الباب :

بعض المناظر الباقية من الفسيفساء ، وهي على الجدار الغربي
خارج باب البريد

وحفّ الناس بالفروي ، فقالوا : هل أجابك ؟ بم أجابك ؟ قل لنا عماذا أجابك ؟

فقال : وما أنا بقائل لكم حرفاً حتى ألقى المفتين ، وأسرع وأسرع معه الناس الى المفتين ، وقد عادوا إلى مجلسهم : فقال : أرأيتم ذلك الفقير ؟ قالوا : نعم . قال : قد أجابني عن مسألتي

فضحكوا من جفائه وجهالته ، وقالوا : بم أجابك ؟

قال : بكذا وكذا

فلما سمعوه أخذ منهم الجدّ مأخذه ، ونظر بعضهم إلى بعض وكلهم مشدوه حائر لا يدري مم يعجب : أمن كثرة علم الرجل مع رثاثة هيئته . أم من رثاثة هيئته مع كثرة علمه ، ثم انتبهوا ، فقالوا : ويحكم ، أدركوا الرجل ، فان له لشأناً ، وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت ترينا حقيقة العلم ، وسموّ الفقر ، وجلال التواضع . . . أدركوا الرجل !

فقالوا : قد خرج

قالوا : أوليس فيكم من يعرفه ؟

فقال رجل من القوم : والله ما رأيناه إلا في السميصاتية (١) وقد نزلها منذ أيام ، فكان ينظف كنفها ومراحيضها ، ويتخذ مجلسه على الباب . حتى أذنوا له بالدخول . وما رأيناه إلا عاكفاً على صلاة أو مشتغلا بتسبيح ، ولم يكلم أحداً !

قال المفتون : ويحكم ، قوموا بنا اليه . . .

فلما دخلوا عليه ، قالوا له : من أنت ؟

قال : رجل من الناس

قالوا : قد سمعنا جوابك ، وإنا نسألك بالله الذي لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من أنت

قال : إنا لله وإنا اليه راجعون . . . أمَا وقد أقسمتم ، فأنا أبو حامد الغزالي

فصاحوا : حجة الأسلام ! وانكبوا على يديه يقبلونهما ، ويسألونه أن يعقد لهم مجلساً في الغد . ثم انصرفوا

* * *

فلما كان الغد نظروا فاذا . . الشيخ قد فارق دمشق ! (٢)

دمشق — علي الطنطاوي

(١) الحاقاه السميصاتية وراء جدار الأموي الشمالي حيال الحديقة التي فيها اليوم قبر صلاح الدين الأيوبي ، وهي قديمة . قالوا : إنها كانت منزل عمر بن عبد العزيز . وقد أنشئت في السنين الأخيرة انشاء جديداً لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الاسلامية ، فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الشعب . وانتهى بها الأمر بأن احتلها جماعة التجانيين عنوة ... وجعلوها معقلا من معاقل التجانية بدمشق . والمشهور اليوم بأن اسمها (الشميصانية) بالشين

(٢) أنظر طبقات السبكي جزء (٤) صفحة (١٠٤)

الأوزاعى

٨٨ هـ — ١٥٧ هـ

أحد أصحاب المذاهب المندرسة

بقلم عبد القادر على الجاعونى

حياة الأوزاعى :

يؤخذ من المصادر التى بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن[١] ابن عمرو بن يُحْمِد[٢] وكنيته أبو عمرو ، ولقبه الأوزاعى نسبةً إلى أوزاع[٣] ، ولقد اختلف فى معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن « وقيل بطن من همذان[٤] » ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس[٥] . ومهما يكن من أمر ، فان لقبه نسبة الى هذه الكلمة ، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف فى حقيقة أصله

ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك[٦] ، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة ٨٨ هـ[٧]

أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً ، لأن المصادر التى بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت ، فهى تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرزه لنا « إمام أهل الشام »[٨] فى عصره ، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ فى البقاع

قلنا إن الأوزاعى ولد فى بعلبك ، ونشأ فى البقاع ، إلا أنه لم يقض حياته فى مهبط رأسه ، وسرعان ما انتقل الى دمشق خارج باب الفراديس[٩] ، ثم ارتحل الى بيروت[١٠] تلك المدينة التى قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٥ ، النووى ١ : ٣٨٢ ، وطبقات الحفاظ للذهبى ١ : ٣٩ (٢) كذا ضبطها النووى ١ : ٣٨٢ (٣) ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٤) نفس المصدر (٥) النووى ١ : ٣٨٣ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ ، ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٧) النووى ١ : ص ٣٨٣ ، ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٨) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٩) النووى ١ : ٣٨٢ (١٠) طبقات الحفاظ ١ : ٣٩

ولقد كان رحمه الله فوق الربعة ، مائلاً الى السمرة ، خفيف اللحية[١] ، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين ، فقد « كان يخضب بالحناء »[٢]

ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول[٣] ، والثورى[٤] . ولقد زاد عليهم أبو زكريا النووى صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهرى ، ومحمد بن المنكدر[٥] . وأهم تلاميذه : عبد الله ابن المبارك ، وهقل[٦] وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعى ، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهرى وغيرهم[٧]

* * *

كان الأوزاعى من تابعى التابعين[٨] ، وقد قال الذهبى فيه : « هو إمام أهل الشام » وفى موضع آخر يقول : « كان ثقة مأموناً صدوقاً ، فاضلاً حبراً ، كثير الحديث والعلم والفقه »[٩]

ويقول ابن خلكان : « هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه »[١٠] . ويقول النووى : « كان إمام أهل الشام فى عصره بلا مدافعة ولا مخالفة »[١١] . ومما يدلك على عظم مركزه فى الفقه أنه أجاب فى سبعين ألف مسألة فقهية ، وقيل ثمانين ألفاً[١٢]

ومما يدلك على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن « سفيان الثورى بلغه مقدم الأوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى ، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ »[١٣] ، وناهيك بمنزلة سفيان الثورى ورفيع مقامه فى العالم الاسلامى . ولا يغيبنّ عن البال أنه كان فضلاً عن اشتهاره بالفقه إماماً فى الحديث[١٤] . ويقول كولدزهير : روى عبد الرحمن بن المهدى

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٢) نفس المصدر (٣) طبقات الحفاظ ص ٣٩ (٤) ابن خلكان ص ٣٤٦ (٥) النووى ١ : ٣٨٢ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ (٧) النووى ١ : ٣٨٢ يظهر أن قتادة والزهرى كانا معاصرين للأوزاعى فسمع عنهم وبذلك نعدهم أساتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه (٨) النووى ١ : ٣٨٢ (٩) طبقات الحفاظ ١ : ص ٣٩ (١٠) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (١١) النووى ١ : ص ٣٨٢ (١٢) النووى ١ : ٣٨٤ (١٣) النووى ١ : ٣٨٤ (١٤) وابن خلكان ١ : ٣٤٦

أن الأوزاعى ليس ثقةً فى الحديث ، ولـكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية (١)

ولم يكن الأوزاعى يتمتع بمركز دينى كفقيه ومحدث فحسب ، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز دنيوى رفيع ، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام « وكان فيهم أعز من السلطان » (٢)

ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ماذهبت اليه : قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل ، وقد دفنا الأوزاعى ونحن عند القبر يقول : رحمك الله أبا عمرو ! فقد كنت أخافك أكثر ممن ولانى » (٣) . وبعد ، فقد تبين لك من هذه الروايات الـكثيرة المحفوظة فى الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعى من الشهرة ، ولا نعرف ، لاندثار مذهبه ، واندفاع المؤرخين فى منح المديح والألقاب ، صحة هذه الأقوال ، ولـكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشئ الـكثير عن عظم الأوزاعى وشهرته

والروايات مجمعة على أن الأوزاعى كان إمام أهل الشام فى عصره ، وأنه كان على جانب عظيم من المقـدرة فى الحديث والفقه ، وتطبيق الأول على الثانى للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهب الأوزاعى :

انتشر مذهب الأوزاعى ، المسمى باسمه ، مدة من الزمن فى سورية ، وبلاد المغرب ؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعى دام فى الشام نحو مائتى سنة ، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضى الشام أحمد بن سليمان بن حَنْـبَـلْ ، وقد ظلت المغرب متبعة مذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة (٤)

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعى أمام غيره من المذاهب ، والسبب فى ذلك — كما يظهر — أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لغرض ، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفى (٥) ، ويقول صالح بن يحيى « ثم تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى » (١)

ومن المعلوم ، أن مذهب الأوزاعى هو أحـد المذاهب المندرسة ، ويأبى التاريخ أبق على هيكله فى طواياه ، فانه لم يسجل إلا نزراً يسيراً من فقهه (٢) لا يمكننا من الحـكم عليه . إلا أن هذا النزر يلقى نوراً على ماهيته ، وقد دلتنى قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعى بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية ، ولم يكن كصنوه أبى حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية . كذلك دلتنى قراءة هذا النزر اليسير إلى أن الأوزاعى لم يكن يستعمل الرأى ، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الـكتاب والسنة ، ففى كلام الأوزاعى عن « سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل » (٣) وعن « المرأة تُسبى ثم يُسبى زوجها » (٤) وعن « ماعجز الجيش عن حمله من الغنائم » (٥) وعن « قطع أشجار العدو » (٦) — ففى كلامه عن أحكام هذه ، وعن جميع ما ورد فى كتاب « سير الأوزاعى » يستعمل الحديث والـكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ماشينا فهرس الفصل فى سرده ، فلا داعى للتكرار ، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هـذه الأقوال فى مظانها (٧)

ولقـد ذهب بعض المؤرخين ، أمثال كولد زهير ، إلى أن الفقه الأسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى . وأنا أقول ، إن كان هذا صحيحاً ، فأحر بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ، ومن أقربهم الى أتباع الـكتاب والسـنة . وبذلك قال أبو حاتم : « الأوزاعى إمام متبعٌ لما سمع » (٨) والـكتاب والسنة أبعـــد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى

(البقية على صفحة ٤٣٨)

(١) Il P 12 Muham.Studien (٢) تاريخ بيروت ص ١٥
(٣) النووى ١ : ٣٨٤ (٤) صالح بن يحيى فى تاريخ بيروت ص ١٥
(٥) Moslem theology P 98

(١) تاريخ بيروت ص ١٥ (٢) كتاب الأمام للشافعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ تحت عنوان كتاب سير الأوزاعى ، ففى هذا الفصل جملة صالحة عن أقوال الأوزاعى فى المسائل الفقهية (٣) كتاب الأم للشافعى ٧ ص ٣٠٦
(٤) نفس المصدر : ٣١٥ (٥) نفس المصدر : ٣٢٣ (٦) نفس المصدر : ٣٢٤ (٧) كتاب سير الأوزاعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥
(٨) النووى ١ : ٣٨٤

١٧ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

ـ ولكن الروح التي قد أصابها الدنس ، والتي تكون كدرة عند انتقالها ، والتي ترافق الجسد دائماً ، وتكون خادمته ، والتي تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذائذه حتى ينتهي بها الأمر إلى العقيدة بأن الحقيقة لاتكون إلا في صورة جسدية ، يمكن الانسان أن يلمسها ، وأن يراها ، وأن يذوقها ، وأن يستخدمها لأغراض شهواته ـ أعني الروح التي اعتادت أن تنفر من المبدإ العقلي ، وأن تخافه وتتحاشاه ، ذلك المبدأ الذي هو للعين الجسمانية معتم تستحيل رؤيته ، والذي لايدرك إلا بالفلسفة وحدها ـ أفتحسب أن روحاً كهذه ستر حل نقية طاهرة ؟

فأجاب : يستحيل أن يكون هذا

ـ إنها قد استغرقت في الجسدي ، وقد أصبح ذلك طبيعياً بالنسبة لها ، لاتصالها المستمر بالجسد ، وعنايتها الدائمة به

ـ جد صحيح

ـ ويحق لنا يا صديقي أن نتصور أن هذه هي تلك المادة الأرضية الثقيلة الكثيفة ، التي يدركها البصر ، والتي بفعلها تغشى الكآبة مثل هذه الروح ، فتنجذب هبوطاً إلى العالم المرئي مرة أخرى ، لأنها تخاف مما هو خفي ، وتخاف من العالم السفلي ـ فتظل محومة حول المقابر واللحود ، إذ ترى بجوارها ـ كما يحدثوننا ـ أشباحاً طيفية بعينها ، لأرواح لم تكن قد رحلت نقية ، ولكنها ارتحلت مليئة بالمادة المنظورة فأمكن رؤيتها (١)

ـ يغلب جداً أن يكون ذلك يا سقراط

ـ نعم ياسيبيس ، فأغلب الظن أن يكون ذلك ، ولا بد أن تكون هاتيك أرواح الفجار لا أرواح الأبرار ، هؤلاء الفجار الذين كتب عليهم أن يجوبوا في مثل تلك المواضع جزاء وفاقا بما اقترفت سبيلهم في الحياة من إثم ، فلا ينقطع تجوابهم ، حتى تشبع الرغبة التي تملؤهم ، ثم يسجنون في بدن آخر ، وقد يُظن أن تلازمهم نفس الطبائع التي كانت لهم في حياتهم الأولى

ـ أي الطبائع تريد يا سقراط ؟

ـ أريد أن أقول إن من اندفعوا وراء الشره والفجور والسكر ، ولم تدُر في خلدهم فكرة اجتنابها ، سينقلبون حميراً وما اليها من صنوف الحيوان . فماذا ترى أنت ؟

أرى أن ذلك جد محتمل

وهؤلاء الذين اختاروا جانب الظلم ، والاستبداد والعنف ، سينقلبون ذئاباً أوصقوراً أو حدأة ، وإلا فالى أين تحسبهم ذاهبين ؟

فقال سيبيس : نعم ، إن ذلك ، ولا ريب ، هو مستقر تلك الطبائع التي تشبه طبائعهم

فقال : وليس من العسير أن نهيئ لهم جميعاً أمكنة تلائم طبائعهم وميولهم المتعددة

فقال : ليس في ذلك عسر

ـ وحتى بين هؤلاء ترى فريقاً أسعد من فريق ، فأولئك الذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التي تسمى بالاعتدال والعدل ، والتي تحصل بالعادة والانتباه ، دون الفلسفة والعقل ، أولئك هم أسعد نفساً ومقاماً . ولم كان أولئك هم الأسعد ؟

لأنه قد يُرجى لهم أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طبيعتهم ، مثل طبيعة النحل أو النمل ، بل قد يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر ، وقد يخرج منهم أناس ذوو عدل واعتدال

ـ ليس ذلك محالاً

ـ أما الفيلسوف ، أو محب التعلم ، الذي يبلغ حد النقاء عند ارتحاله ، فهو وحده الذي يؤذن له أن يصل إلى الآلهة ، وهذا هو السبب ، أي سمياس وسيبيس ، في امتناع رسل الفلسفة الحق عن شهوات الجسد جميعاً ، فهم يصبرون ويأبون أن يُخضعوا أنفسهم لها — لا لأنهم يخشون إملاقاً ، أو يخافون لأسرهم دماراً ، كمحبي المال ، ومحبي الدنيا بصفة عامة ، ولا لأنهم يخشون العار والشين اللذين تجلبهما أعمال الشر كمحبي القوة والشرف

قال سيبيس : لا يا سقراط ، إن ذلك لا يلائمهم

(١) يقصد بذلك أن الأشباح التي يراها الناس عند المقابر ، إن هي إلا أرواح من ذلك الضرب الذي انغمس أثناء الحياة في المادة انغماساً ، ففارقت الأجساد دنسة ملوثة بالمادة ، فشق عليها أن تعيش في ذلك العالم الطاهر النقي ، عالم الأرواح الخفية ، فهبطت إلى الأرض مرة أخرى ، وأمكن للعين رؤيتها

فأجاب : حقاً إنه لا يلائمهم ، وعلى ذلك فاولئك الذين يعنون بأرواحهم ، ولا يقصرون حياتهم على أساليب الجسد ، ينبذون كل هذا ، فهم لن يسلكوا مايسلك العُمْى من سبل ، وعندما تعمل الفلسفة على تطهيرهم وفكاكهم من الشر ، يشعرون أنه لا ينبغى لهم أن يقاوموا فعلها ، بل يميلوا نحوها ، ويتبعوها إلى حيث تسوقهم

ـ ماذا تعنى يا سقراط ؟

قال : سأحدثك . إن محبي المعرفة ليدركون عندما تستقبلهم الفلسفة أن أرواحهم إنما شُدت إلى أجسادهم وأُلصقت بها ، ولا تستطيع الروح أن ترى الوجود إلا خلال قضبان سجنها ، فلا تنظر اليه وهى فى طبيعتها الخاصة ، إنها تتمرغ فى حمأة الجهالة كلها ، فاذا ما رأت الفلسفة ما قد ضُرب حول الروح من قيد نخيف ، وأن الأسيرة تنساق مدفوعة بالرغبة إلى المساهمة فى أسر نفسها (لأن محبي المعرفة يعلمون أن هذه كانت الحالة البدائية للروح ، وأنها حين كانت فى تلك الحال ، تسلمتها المعرفة ، ونصحتها فى رفق ، وأرادت أن تحررها ، مشيرة لها بأن العين مليئة بالخداع ، وكذلك الأذن وسائر الحواس ، لتحملها على التخلص منها تخلصاً تاماً ، إلا حين تدعو الضرورة إلى استخدامها ، وأن تتجمع وتتفرغ إلى نفسها ، وألا تثق إلا بنفسها وما توحى به اليها بصيرتها عن الوجود المطلق ، وأن تشك فى ما يأتيها عن طريق سواها ، ويكون خاضعاً للتغير) ، فالفلسفة تُبَيّن لها أن هذا مرئى ملموس ، أما ذلك الذى تراه بطبيعتها الخاصة فعقلى وخفىّ ، وروح الفيلسوف الحق تظن أنه لا ينبغى لها أن تقاوم هذا الخلاص ، ولذا فهى تمتنع عن اللذائذ والرغبات ، والآلام والمخاوف ، جهد استطاعتها ، مرتئيةً أن الانسان حينما يجوز قدراً عظيما من المسرات أو الأحزان أو المخاوف أو الرغبات ، فهو لا يعانى منها هذا الشر الذى تقدره الظنون — كأن يفقد مثلاً صحته أو متاعه ، مضحياً بها فى سبيل شهواته — ولكن يعانى شراً أعظم من ذلك ، هو أعظم الشرور جميعاً وأسوأها ، هو شر لا يدور فى خلده أبداً

قال سيبيس : وما هو ذلك يا سقراط ؟

ـ هو هذا : حينما تحس الروح شعوراً شديد العنف ، بالسرور أو بالألم ، ظننا جميعاً ، بالطبع ، أن ما يتعلق به هذا الشعور العنيف يكون عندئذ أوضح وأصدق ما يكون ، ولكن الأمر ليس كذلك

ـ جد صحيح

وتلك هى الحال التى يكون فيها الجسد أشد ما يكون استعباداً للروح

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لأن كل سرور وكل ألم يكون كالمسمار الذى يسمّر الروحَ فى الجسد ، ويربطها به ، ويستغرقها ، ويحملها على الايمان بأن ما يؤكد عنه الجسد أنه حق فهو حق ، ومن اتفاقها مع الجسد ، وسرورها بمسراته ذاتها ، تراها مجبرةً على أن تتخذ عادات الجسد وطرائقه نفسها ، ولا تُنتظر ألبتة أن تكون الروح نقية عند رحيلها إلى العالم السفلى ، فهى مشبعة بالجسد فى كل آن ، حتى أنها سرعان ما تنصب فى جسد آخر ، حيث تنبت وتنمو ، ولذا فهى لا تساهم بقسط فى الإلهىّ ، والنقىّ ، والبسيط

فأجاب سيبيس : ذلك جد صحيح يا سقراط ؟

وهذا يا سيبيس هو مادفع محبي المعرفة الحق أن يكونوا ذوى اعتدال وشجاعة ، فهم لم يكونوا كذلك ، لما تقدمه الحياة الدنيا من أسباب

ـ لا ، ولا ريب

ـ لا ، ولا ريب ! فليست تفكر روح الفيلسوف على هذا النحو ، إنها لن تطلب إلى الفلسفة أن تحررها ، لكى تستطيع ، إذا ما تحررت ، أن تلقى بنفسها مرة أخرى ، فى معترك اللذائذ والآلام ، فتكون بذلك كأنها تعمل ما تعمل ، لا لشىء إلا لكى تعود فتنقضه ، وكأنها تنسج خيوطها — كما فعلت پنلوب[1] — بدل أن تعمد إلى حلها ، ولكنها ستتخذ من نفسها عاطفة راكدة ستتأثر بخطوِ العقل ، فتلازمه لتشاهد الحقيقىّ والإلهىّ (وهو ليس موضوعاً للرأى) ومن ثم تستمد غذاءها ، وهى تحاول بذلك أن تحيا مادامت فى الحياة ، وتأمل أن تلتمس ذوى قرباها بعد الموت ، وأن تتحرر من النقائص البشرية ، أى سمياس وسيبيس ، أن تتبدد روحٌ كان ذلك غذاءها ، وكانت تلك آمالها المنشودة ، عند انفصالها عن الجسد فتذروها الرياح ، وتصبح عدما ليس له وجود

(يتبع) زكى نجيب محمود

(١) پنلوب هى زوجة أوليس ، التى كانت تنقض فى الليل ما قد نسجته فى النهار ، لتكسب وقتاً من خطابها

أنشودة عبقر

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

يا مزهري نغم أغاني الهوى
القلب يعطي والهوى يسأل

* * *

أأنتِ مِنْ عَبْقَرَ أُنْشُودَةٌ ... أرْسَلَها مِنْ رُوحِهِ مُرْسِلُ
أمْ أنتِ دُنْيا حَفَلَتْ بالهوَى ... يا طِيبَ ما جاءتْ بِهِ تَحْفِلُ
أهِيمُ فى حُسنِكِ لا أرْعَوِى ... أنْقُلُ مِنْ نُعْمَاهُ ما أنْقُلُ
أغيبُ فى جَنَّاتِهِ سادِرًا ... كغَيْبَةِ النَّحْلِ إذا يَنْهَلُ
أنتِ نِدائى فى سُجُونِ الدُّجى ... ومَفْزَعِى فى الرُّعْبِ والمَوْئِلُ
وَجْهُكِ هذا أمْ رُؤَى حُلْوَةٌ ... وثَغْرُكِ اللَّمَّاحُ أمْ سَلْسَلُ
يَفْتِنُنى منكِ صِبًى ناضِرٌ ... آذَارُ فى أعْطَافِهِ يَرْفُلُ
مُزَوَّقُ الأفْياءِ يَنْدَى مُنًى ... كأنَّهُ مِنْ ضِحْكِهِ جَدْوَلُ
تَضِيعُ فى أمْوَاهِهِ حَسْرَتِى ... وما يُعانى القَلْبُ أوْ يَحْمِلُ
تُلْهِينى عَيْنَاكِ أنَّ الهوَى ... إذا طَغَتْ أوْهَامُهُ يَقْتُلُ
إذا احْتَوَاكِ القَلْبُ فى حُلْمِهِ ... قُلْتُ أقَلْبِى أنْتَ أمْ جُلْجُلُ
يَظَلُّ مِنْ لَوْعَتِهِ رَاجِفًا ... كما انْثَنى واضْطَرَبَ السُّنْبُلُ
لَوْلاكِ لم يُسْكِرْ فُؤَادِى الأسَى ... ولم يُهَدْهِدْنى الهوَى الأوَّلُ

* * *

دُنْيَاىَ إمَّا غِبْتِ عَنْ نَاظِرِى ... فَوْضَى فلا سُؤْلٌ ولا مَأْمَلُ
أحِسُّها صَحْرَاءَ عُرْيَانَةً ... مُوحِشَةً تُجْوَى وَتُسْتَقْلَلُ
لا الأنْسُ ضَحَّاكٌ بِسَاحَاتِهَا ... وَلَيْسَ فيها مِنْ حِمًى يَأْهَلُ
أرُدُّ عنها الطَّرْفَ مَغْرُورِقًا ... غَيْمَانَ فى حَيْرَتِهِ يُوغِلُ

* * *

عِيشِى بِقَلْبِى فَرَحًا شَامِلاً ... وَأَلْهِمِينى مِنْكِ ما يَجْمُلُ
وَفَسِّرِى لِلرُّوحِ لُغْزَ الهوَى ... تَكْشِفْ فِجَاجًا سُبُلُهَا تُجْهَلُ
ما ضَرَّنى إنْ كُنْتِ لى أنَّنى ... يَكْثُرُ حُسَّادِى وَالعُذَّلُ
إنْ جِدَّ فى شَكْوَى الهوَى شَاعِرٌ ... ظَنُّوهُ مِنْ ضَلَّتِهِمْ يَهْزِلُ

* * *

يَهُدُّنِى شَجْوِى لَكِنَّما ... أظَلُّ فى غَمْرَتِهِ أجْذَلُ
على فَمِى قِيثَارَةٌ تَشْتَكِى ... وفى ضُلُوعِى زَهْرَةٌ تَذْبُلُ
أقْتَاتُ بالأوْهَامِ فى وَحْدَةٍ ... الرُّعْبُ فيها شَبَحٌ يَمْثُلُ
تَطْفَحُ بالأهْوَالِ أرْجَاؤُهَا ... والفِكْرُ تِيَّاهٌ بِهَا مُجْفِلُ
إنْ خَلَصَتْ رُوحِى مِنْ مَجْهَلٍ ... هَبَّ يُعَنِّى قَصْدَهَا مَجْهَلُ
تَعْمُرُ بالجَنَّةِ دَارَاتُهُ ... والرَّيْبُ يَطْغَى والسَّنَا يَأْفِلُ
أسِيرُ فيهِ لا الهُدَى رَائِدِى ... وليسَ لى عنْ خَوْضِهِ مَرْحَلُ
أخِبطُ فى بَهْمَاءَ مِنْ حَيْرَتِى ... والليلُ مَرْهُوبُ السُّرَى أليَلُ
أسْمَعُ مِنْهُ نَغَمًا مُحْزِنًا ... تَصُرُّهُ فى أُذُنَىَ الشَّمْأَلُ
أمَامَ عَيْنَىَّ دُجًى رَاعِبٌ ... يَلُفُّنِى مِطْرَفُهُ المُسْبَلُ
وَمَنْزِلِى نَاءٍ وَبِى مِحْنَةٌ ... فَآهِ لَوْ يَقْتَرِبُ المَنْزِلُ
ضَجِجْتُ مِنْ تَحْبِيسِ هذا الدُّجى ... فَهَلْ يَبِينُ النُّورُ أو يُقْبِلُ
أوَّاهُ مِنْ مُضْطَرَبٍ جَاهِدٍ ... الغَيْبُ مَحْجُوبٌ بِهِ مُقْفَلُ
وَوَحْشَةٍ فى القَلْبِ ما تَمَّحِى ... وَظُلْمَةٍ فى النَّفْسِ ما تَنْصُلُ

* * *

هذِى حَيَاتِى مِلْؤُهَا حَسْرَةٌ ... وكاهِلِى مِنْ عِبْئِهَا مُثْقَلُ
كأنَّنى فى حَقْلِهَا غَرْسَةٌ ... ذَاوِيَةٌ أخْطَأهَا المَنْجَلُ
أفْرَدَهَا القَدَارُ فى عالَمٍ ... نَعِيمُهُ الخالِصُ مُسْتَوْبَلُ
الرُّوحُ مِنِّى فَقَدَتْ تِرْبَهَا ... فانْدَفَعَتْ مِنْ هَمِّهَا تَعْوِلُ
آنًا تَرَاهَا سَكَنَتْ لا تَعِى ... كأنَّها فى صَمْتِهَا الهَيْكَلُ
وتَارَةً كالنَّارِ جَيَّاشَةً ... كأنَّما يَغْلِى بِهَا مِرْجَلُ
كذاكَ أحيَا مُوجِعًا سَاهِمًا ... والمَوْتُ مِنْ هذا الضَّنَى أمْثَلُ
يا طَيْفَهَا يَرْهَقُ قَلْبِى الأسَى ... وأنْتَ عنى ذَاهِلٌ تَغْفُلُ
أحْبِبْتُهَا مُغْرِيَةً كالدُّنَا ... لا سِحْرُهَا يَفْنَى ولا يَبْطُلُ
تَتْرُكُ فى النَّفْسِ أحَادِيثَهَا ... أعْذَبَ مما يَتْرُكُ البُلْبُلُ
أشَمُّ مِنْها عالَمًا عَاطِرًا ... يَكَادُ مِنْ فَرْطِ الشَّذَا يَثْمَلُ

* * *

يا مِزْهَرِى نَغِّمْ أغَانِى الهوَى ... القَلْبُ يُعْطِى والهوَى يَسْأَلُ
وأنْسِنِى الدُّنْيا وأشْجَانَها ... فَمِنْ عَنَاءِ العَيْشِ ما يُذْهِلُ
وأنْتَ يا مَشْعَلِىَ المُرْتَجَى ... أضِئْ لِىَ الآفَاقَ يا مَشْعَلُ

* * *

هذا السَّنَا الرَّفَّافُ مِنْ خَاطِرِى ... واللَّحْنُ مِنْ رُوحِىَ مُسْتَرْسَلُ

دمشق — أنور العطار

من أدب الهند

الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى

الهنـــدى

ترجم صديق الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندى العلامة الصوفى الكبير الأمير خسرو فى (الرسالة)، فأثارت الترجمة فى نفسى ذكرى ذلك العبقرى العظيم أيام كنت أطالع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته فى الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سمتهما، فكنت أستعين بمسامرات الاخوان ومحادثات الأقران. واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لى، وإن كانت لذلك أسباب أخرى، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. أحب أن أبلغ اليوم بقدر الامكان رسالته إلى «الرسالة»، إذ حياة العظماء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال فى كل مكان وزمان، وأنثر أزهار الحديث عنه على مرقده الخالد الحى وهو ذكراه فى القلوب

* * *

ولد الأمير خسرو فى الهند فى مدينة بطيالى بقرب دهلى فى سنة ٦٥٢ هجرية [1] من سلالة عريقة فى الشرف من الأتراك المهاجرين الى الهند من مظالم جنكيزخان فى وسط آسيا. فكانت قبيلته السماة «لاتشين» تسكن فى بلدة تكش فى ولاية ماوراء النهر، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيزخان؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة. وكان فى الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المماليك، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم. وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن. وقد روى أمير خوند فى كتابه سير الأولياء عن والده أن فى جوار والدى الأمير خسرو كان يسكن صوفى كبير مسمى «أمير لا تشين» فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً فى القماش اليه، فقال الصوفى: «أنتم جئتم إلى عمن سيسبق خاقانى (الشاعر الفارسى الشهير) بدرجتين؟

مات أبو خسرو وهو فى السابعة من سنه، ولكن أسرته كانت مثرية فلم تهمل تربيته وتعليمه، فتربى خسرو فى دهلى، وكانت دهلى إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن، فكانت مركز العلوم والفنون، ومحور الحضارة والمدنية، ومأوى الفضلاء والعلماء، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية فى الأهمية لبغداد. فى هذا الوسط الراقى تربى خسرو فنبغ فى العلوم والفنون المختلفة، غير أن ميله الغريزى كان إلى ثلاثة: الشعر والموسيقى والتصوف، فأجادها فى أقل وقت، وبلغ فيها درجة الأمامة

بدأ خسرو يقول الشعر وهو فى صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفا بها من الجميع فى نهاية العقد الثانى. ولكن تقاليد ذلك الزمن والظروف العائلية كانت تقتضى أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه، فلم يكن له بد من أن يتصل بامراء [1] وسلاطين ذلك الزمن من مقدرى مهنته. فاتصل خسرو فى سنة ٦٧٦ أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم «ملك شجو» ، وملك شجو كان ابن أخت الامبراطور غياث الدين بلبن [2] و «أمير حاجب» (أى رئيس الحجاب) فى بلاطه. ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن، واسع الصدر كريماً. فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برنى، وهو من معاصرى خسرو وأصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى: «أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان فى سعة الصدر والكرم، وفى اطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم، حتى أن هلاكو خان الشهير أرسل اليه خنجراً

(١) استنبطنا تاريخ ولادته هذا من مصنفه «قران السعدين» الذى أتمه فى سنة ٦٨٨ هجرية وقد ذكر فيه أنه كان سنه حينئذ ٣٦ سنة، وأما ما كتبه العلامة المؤرخ المرحوم شبلى نعمانى الهندى فى كتابه «شعر العجم» معتمداً على روايات أخرى أنه ولد فى سنة ٦٠٥ هجرية فهو غير صحيح ومما لا يعتمد عليه

(١) كان فى القرون الوسطى فى الهند «خان» و «ملك» و «أمير» ألقاب رسمية لتبيين منزلة الموظف. فيلقب بـ«خان» الموظف الذى يقدر على حشد مائة عسكرى، وبـ«ملك» من يقدر على ألف، وبـ«أمير» من يقدر على عشرة آلاف. هذا كان فى بادئ الأمر، ولكن بعد مرور الزمن زالت تلك الاعتبارات، فأصبحت تطلق كلمة «أمير» على جميع موظفى الحكومة مهما تكن منزلتهم عالية

(٢) ملك من ملوك المماليك حكم على الهند من سنة ٦٦٤ هجرية إلى سنة ٦٨٦ هجرية

وعرض عليه أن يكون حاكماً على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك . ولكن خاله الامبراطور بلبن استنكر حريته الخارجة عن عن العادة[1] . ويذكر المؤرخ برنى فى محل آخر أن شجوّ كان أغزرهم جوداً وأعظمهم منحاً ، وزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المعطف الذى ستر جسمه . ومن أمثال جوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيل فى اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكه[2] على المغنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه . ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق . فقد قال قصائد غير واحدة فى مدح شجوّ ، ونحن ننقل إلى العربية بعض أبيات من قصيدته البديعة التى تعد مثالاً للغلو الشرقى فى المديح قال :

« إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل ، والهلال الأصفر كالمريوق[3] بقرنيه المقوسين كاد أن يغيب عن النظر ، فسألت الصبح : أين شمسك الموعود بها ؟ فأرانى وجه شجوّ المشرق بنوره البازغ ؛ ثم توجهت الى السماء المرصعة بالنجوم ، فسألتها : من يساعد نجومك فى سيرها ؟ فضحكت من سؤالى العبث ، وأرتنى أيدى الملك التى جعلتها مستقيمة »

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجوّ أكثر من سنتين ، فان قلب شجوّ تغير على الشاعر خسرو لحادثة حدثت ، وهى أن نصير الدين بغراخان النجل الثانى للأمبراطور غياث الدين بلبن كان مرة على مأدبة شجو والشاعر كذلك ، فلما سمع منه شعره استحسنه وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية ، فغضب شجو على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير ؛ وعبثاً حاول خسرو بعد ذلك إرضاءه

اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بغراخان حاكم سمانا لمدة قصيرة ، ثم انقطع عنه واتصل بعده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد ، النجل الأكبر للأمبراطور غياث الدين بلبن ؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمى البنجاب والسند ، وعندما حضر العاصمة دهلى مع ربع الاقليمين فى سنة ٧٨٢ هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذه الى البنجاب . بقى خسرو مع خان شهيد خمس سنين ، وكان دائماً موضع العطف الخاص والاجلال والتكريم ، لأن خان شهيد كان أمثل الأمراء على حسب تقاليد الزمن فى الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب ، ومن أكبر مقدرى الفنون والشعر ، فقد وجد فى بياضه[1] ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع ، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء ، وكان يبذل قصارى جهده فى جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء فى مجلسه ، فقد دعا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى الشهير مرتين ، وأرسل اليه نفقات السفر ووعد ببناء صومعة له فى بلدة ملتان والانعام الكثير ، ولكن الشيخ اعتذر لكبر سنه ، وبعث اليه بعض غزلياته مكتوبة بيده ، ولفت نظره للشاعر الأمير خسرو مبالغاً فى مدح ذكائه وفضله[2]

* * *

فى سنة ٧٨٧ هجرية هجم المغول على الهند ؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل ، ولم يكن الأمير خسرو جليس الأمراء فقط ، بل كان قائداً عسكرياً أيضاً ، فقد اشترك فى محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً فى يدهم بعد أن قتل سيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى . ذكر ذلك بكلمات مؤثرة فى رثائه الشهير لسيده ننقل بعض أبياته الى العربية ؛ قال :

« ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء ، وقامت القيامة على الأرض ، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفريق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المخربة للحديقة »

ثم وصف آلام أسره فقال :

« إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دمهم ، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار فى الأكليل . وأنا أيضاً كنت أسيراً[3] خوفاً من أنهم يريقون دمى ، لم تبق فى عروقى قطرة من الدم . وكنت أجرى كالماء هنا وهناك مع نقطات لا تمد على قدمىّ مثل الفقاقيع على سطح النهر . وكان لسانى قد جف من العطش الشديد ،

(١) تاريخ فيروز شاهى ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اسم للعملة الذهبية والفضية فى ذلك الزمن

(٣) أى من أصابه مرض اليرقان

(١) بياض عبارة عن مذكرة أو كراسة يكتب صاحبه فيه الأبيات المختارة من الشعراء المختلفين . وبياض خان شهيد كان أعطاه أبوه الامبراطور بلبن لمحافظ المحبر أمير على ومنه وصل الى الأمير خسرو

(٢) منتخب التواريخ للبدايونى

(٣) لم يذكر خسرو عن نفسه أنه كان أيضاً مربوطاً مع الأسارى الآخرين ، فربما ذلك لأنه كان قائداً فى الجيش ، ففرقوا بينه وبين الأسارى الآخرين برجاء مفاداته

ومعدتى التصقت (بظهرى) من الجوع . وهم (أخذوا تبانى) وتركونى عريان مثل الشجرة المجردة من الأوراق فى زمن الشتاء ، أو الزهرة المخموشة بالأشواك . والمغولى الذى أسرنى كان جالساً على الحصان مثل الأسد ، وكانت الرائحة الكريهة تسطع من فمه وإبطه ، وكان على ذقنه خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات . فان توانيت وراءه من الضعف كان يهددنى تارة بمقلاته وتارة برمحه ، فكنت أتنهد على تلك الحالة وأرى أن النجاة منها مستحيلة . ولكنى أشكر الله على أنى استعدت حريتى بغير أن يطعن صدرى برمح ، أو يقطع جسمى بسيف »[1]

وحكاية استعادة حريته هى أن المغولى وحاشيته وخيله كلهم نزلوا فى النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانتهز خسرو الفرصة وهرب[2] وبعد وصوله إلى دهلى كتب هذا الرثاء المؤثر الذى شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفا عند عامة الناس أيضاً

بقى خسرو بعده فى مسقط رأسه فى خدمة أمه حتى تولى الأمر معز الدين كيقباد ، وهو آخر ملوك المماليك ، فاتصل به وصنف له كتابه الشهير « قران السعدين » على طلبه ، ولم تمض مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المماليك إلى الأسرة الخلجية . فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجى الذى كان يعرف خسرو ويعترف بشعره وذكائه قبل اعتلائه العرش . فمنح خسرو لقب « الأمير » ، وعينه فى منصب أبيه برتب ألف ومائتى تنكة فى السنة . ثم رفعه الى منصب محافظ القرآن الملكى . فأصبح من أعضاء بلاط الملك ومن ندمائه . فكتب له خسرو كتابه « مفتاح الفتوح » ، وهو تاريخ غزوات جلال الدين خلجى بالشعر . نشبت حرب أهلية بين العائلة الملكية فقتل فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم تولى علاء الدين خلجى ، فاتصل به الشاعر خسرو ، وهو أطول اتصالاته بالأمراء ، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة ، وهى أيضاً مدة أكثر انتاجا فى حياة خسرو . فقد صنف فى أقل من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية منظومة وهى : (١) مطلع الأنوار ، (٢) شيرين وخسرو ، (٣) ليلى والمجنون ، (٤) آئين سكندرى (أى القانون الأسكندرى) ، (٥) هشت بهشت (أى الجنات الثمان) ، وتسمى كلها أيضاً « بنج كنج » أى « الخزائن الخمس » . ودشنها لشيخه فى الطريقة الصوفى الولى الكبير مولانا « نظام الدين أولياء » وأهداها إلى السلطان علاء الدين . وبينما كان مشغولاً بتصنيف ليلى والمجنون منها فقد أمه وأخاه فى سنة ٦٩٧ فحزن ، ورثاهما بكلمات تسيل الدموع فى مصنفه ، ننقل رثاءه لأمه الى العربية قال :

« وفى هذه السنة فقدت نورين من نجمتى وهما أمى وأخى ،
أسبوع واحد من سوء حظى فقـــدت فيه قمرين !
إن حظى كبسنى من جهتين ، والفلك بدد بى بلطمتين ،
فأصبح نوحى مزدوجاً وغمى مضاعفاً ، واحسرتاه ! أنوح على الاثنين
وا أسفاه ! ألمان لمثلى ! إن شعلة واحدة كانت تكفى لمزرعى
إن صدراً واحداً لا يتحمل ثقلين ، ولا رأساً واحداً وجعين ،
إن أمى تحت التراب ، فلا غرو أن ألوث رأسى بالتراب
يا أمى ! أين أنت ؟ لم لا ترينى محيـــاك ؟
اطلعى ضاحكة من قلب الأرض ، وارحمى بكائى المر !
إن فى كل أثر من قدمك لى تذكاراً من الجنـــة ،
إن وجودك كان حافظاً لنفسى وممينا ومتكأ لى ،
يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمرى ،
واليوم ختم على (لسانى) وسكوتك لا يزال ناصحاً

* * *

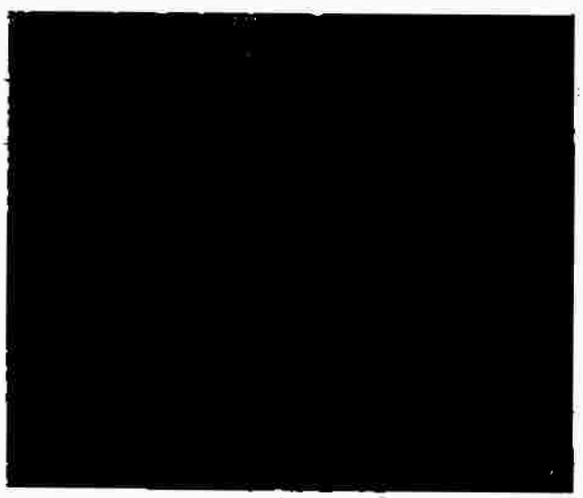

ضريح الأمير خسرو وهو من رخام أبيض ناصع يتصل به مسجد فى ضاحية من ضواحى دهلى

صنف خسرو فى عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أى الخزائن الخمس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سنبينها عند كلامنا عن مصنفاته ، وفى سنة ٧١٥ هجرية توفى علاء الدين فتولى الأمر قطب الدين خلجى فاتصل به خسرو وصنف فى عهده « نه سپهر » أى (الأفلاك التسعة) وقدمه اليه فسر السلطان منه جداً وأنعم

(١) منتخب التواريخ للبدايونى
(٢) وهذه الحكاية قد ذكرها خسرو فى مصنفه « دول رانى »

ملخص محاضرة :

الفن الفارسي

للشاعر الانكليزي Lawrence Binyon

« وفد على مصر في هذه الأيام الشاعر الانكليزي المشهور مستر لورنس بنيون أمين القسم الشرقي بالمتحف البريطاني ، وألقى أربع محاضرات تناول فيها أغراضاً مختلفة في الفن والأدب ، وهذه أولى محاضراته عن الفن الفارسي

إن الكلام عن الفن الفارسي يستوجب من المحاضر أن يلم في بادئ الأمر بالموقع الجغرافي الذي كان له أثر لا ينكر في توجيه الرسم الفارسي ناحية خاصة ، يلاحظها كل من له اهتمام به وتعلق بدراسته ، وإن وقوع فارس بالقرب من بلاد العرب وتوسطها بينها وبين بلدان الشرق الأقصى صبغ الفن الفارسي بصبغة خاصة وإن ظل مع ذلك محتفظاً بروحه القوية ، وشخصيته البارزة التي تميزه تميزاً واضحاً جلياً من فنون الأمم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية ، فلهذا الفن مميزاته الخاصة وروحه المستمدة من صميم الواقع

وكما أن للظروف الجغرافية تأثيراً ، كذلك للظروف السياسية أثراً لا يمكن للباحث أن يتجاهله أو ينكره ، فقد تغلبت على هذه البلاد عدة دول حاكمة كالأغريق في القديم والساسان والمسلمين ، وكانت الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التي حكمت إيران ، والتي توطد لها العرش زهاء أربعة قرون منذ القرن الثالث حتى السابع الميلادي ، إذ ظهرت قبل ذلك بقليل دولة الاسلام الفتية ، فاكتسحت ما في طريقها ، وخفق علم الاسلام على كثير من ربوع العالم ، ولما كانت فارس قريبة من بلاد العرب فقد اتجهت اليها أنظارهم بطبيعة الحال والموقع ، ولم يلبث العرب أن خضدوا شوكة دولة بني ساسان واستتبت أقدامهم فيها ، كما أخذ الدين ينتشر في ربوعها ، ومن ثم أخذ الفن الفارسي من رسم الى تصوير الى شعر يتأثر بعض الشيء بهذه الظروف الجديدة التي أحاطت به ، وربما كان ذلك أوضح في الشعر منه في الرسم والتصوير

وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير الى أن العرب حين غزوا هذه البلاد كانت هناك نهضة فنية ، تدلنا على ذلك تلك الآثار التي أماطت اللثام عنها بعثة ألمانية ، إذ عثرت على كثير من هذه الرسوم في بلاد الأفغان ، وأقدم هذه اللوحات بوذية ، ولكنها على درجة عالية من الأتقان

وقد قامت في ذلك الحين مدرسة فنية في بغداد التي كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً مهماً ، وإذ كان العرب قد نشروا سلطانهم على هذه الربوع ، فقد أدوا للفن خدمة كبرى بأن كانوا وسيطاً قوياً في نقل الروح الغربية الى الشرق ، وتطعيم الفن الفارسي بالفن العربي ، وذلك بأن العرب اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتعاملوا معها في جميع مرافق الحياة . وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فلا بد لنا من أن نشير إلى أن أثر الفن الصيني كان أقوى من تأثير الفن الأوربي في التصوير الفارسي ، وإن المقارنة بين الفنين الصيني والفارسي لتُظهر لنا هذا أجلى من المقارنة بين الثاني والغربي ؛ وكان الاختلاط في أول الأمر قليلاً ، ولكن الظروف المحيطة غيرت الأمر الواقع ، وزادت الصلات توثقاً ، إذ ظهرت دولة المغول ، وهم من الجنس الأصفر تحت زعامة القائد المعروف تيمورلنك ، فاتصلت البلاد الصينية بربوع الشرق الأدنى ، وأصبحت هذه البلاد جميعاً أكثر ارتباطاً من ذي قبل . وهنا كان عصر ازدهار وقوة للفن الفارسي !

عليه بفضة تساوي وزن الفيل ، وبعد وفاة قطب الدين تولى الأمر نصير الدين خلجي لمدة أقل من سنة ، ثم انتقل الأمر من الأسرة الخلجية إلى الأسرة التغلقية ، وكان أول ملوكها غياث الدين تغلق فاتصل به خسرو وصنف له « تغلق نامه » أي كتاب تغلق في سنة ٧٢٥ هجرية وهو آخر تصانيف خسرو لأنه مات في تلك السنة

عاش خسرو ٧٣ سنة وصنف ٩٩ كتاباً أكثرها في الشعر باللغة الفارسية والهندية ضاع جلها إلا القليل ، وعاشر عشرة ملوك ، وإن لم تجاوز مدة بعض منهم سنة ، بينهم ملوك الأسرة الخلجية الكاملة ؛ وكان خسرو عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً ، وموسيقياً بارعاً ، وصوفياً كبيراً . وسنتكلم عن نبوغه في الشعر والموسيقى والتصوف في المقال الآتي إن شاء الله »

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

ذلك بأنّ الفنّانين الفارسيين حين شاهدوا آثار المصورين الصينيين أعجبتهم هـذه البراعة الفائقة والدّقة المتناهية فى إبراز العواطف والمناظر المختلفة فى صور محسوسة تسترعى الانتباه ، وتشهد لهم بالعبقرية والفنّ ، إذ كانت هـذه الرسوم تستلزم التفكير الدقيق فى كيفيّة تهيئتها وإبرازها على هذا النحو العجيب ، ومن ثمّ بدأوا يجارونهم وينهجون سبلهم ، ويترسمون آثارهم وقواعدهم ، ورأوا أنّ إبراز الاحساس بالواقع عنـد الصُّوَر أكثر مما عندهم ، كما شاهدوا الدقة العظيمة والمقدرة الرائعة فى تجسيم كل ما تقع عليه العين فى صورة جذّابة ، كما أنهم لم ينسوا أن يستلهموا الطبيعة صوراً ويستمدوا منها فناً جعلنا نقف موقف الاجلال إزاء هذا الفنّ العالى المجسّم ، حتى إنهم صوّروا تسلسل المياه مما لا ينقصه إلاّ الخرير حتى تكون طبيعة ثانية من عمل المرء بجانب الطبيعة التى أوجدها الله

وقد يظهر لنا من هذه الكلمة السالفة أن الفن الفارسى كان صورة ثانية للفن الصينى ، أو هو فن صينىٌ رسمته ريشة فارسية ، ولكن الحقيقة هى أنه بالرغم من تأثره الى حدّ ما بالرسم الصينى فقد ظل محتفظاً بشخصيته وروحه وطبيعته الفارسية ، ولا يشين الفن الايرانى[1] أن يكون قد أَجلّ الفن الصينى ؛ ومهما يكن الأمر فهناك فروق تظهر جلية للباحث المدقق ، حين تعرض عليه صورتان لمنظر واحد أولاهما لمصور صينى والأخرى لفارسى ؛ ونحن حين نستعرض صورتين لمنظر من مناظر الطبيعة مثلاً ، تبارت فى إحداها ريشة صينية وفى الأخرى فارسية ، فاننا نلاحظ فى الأولى التحرر من القيود الطبيعية وعدم التزام وحدة معينة ، بل نرى كيف يُخضعُ الفنّانُ الطبيعة لريشته ، بينما نلمس تناسق الأجزاء وترتيب بعضها بالنسبة للبعض الآخر فى صورة الفنان الفارسى ، وربما سأل السامع نفسه إزاء هذا عن العلة أو العلل الحقيقية والمباشرة أو غير المباشرة التى أدت الى افتراقهما بعضهما عن بعض بعد أن اتحدا فى الفكرة ، أهى الخيال ؟ أم الاحساس ؟ أم طبيعة كلّ منهما ؟ وقد يكون ذلك أحد هذه الأسئلة ، وقد تكون جميعها متحدة ، ولكن هناك أمراً لا بد منه ، ولابد أن نذكره إذا أردنا إجابة شافية توصلنا أو تقربنا الى بغيتنا ، ذلك أن استيعاب الفنان الايرانى للمسافات لم يكن كاستيعاب الصينى لها واهتمامه بها ، فبينما نجد عنـد الأخير الطلاقة الفنية ، والاحساس بالحرية ، إذا بنا نجد الفنان الفارسى يحدد قبل البدء ، ويرسم لريشته محيطاً لا تتعداه ، ومجالاً لا تخرج عنه بحال من الأحوال

وصفة ثانية كان يمتاز بها الفنان الفارسى على وجه العموم ، تلك هى أنه لم يكن ليشرد بريشته كثيراً ، وربما عد هذا فى نظر بعض نقاد العصر الحاضر جموداً ، وقد يخالفهم فى نظرتهم هذه كثيرون ، ولكل من الفريقين وجهة ورأى يباين رأى الفريق الآخر ، وقد يتعصبون لهذه الأفكار والآراء ، ولكنهم يتفقون فى أنه عمل رائع جدير بالاعجاب ، وسواء أكان الحق فى جانب هذا أم ذاك ، فذلك أمر مرجعه الى الذوق الفنى والشـعور المرهف الذى يستشف الحقيقة خلال الطلاسم ، ويتلمس الشملة من بين أسداف الظلام ، ويتعرف الصواب والحق مهما تكالبت أسباب الباطل ، ويستخرجه كما يستخرج التبر من الثرى نقياً

ولعل أقرب الأمثلة على هذه الصّفة التى أشرنا إليها آنفاً : أعمال (بهزاد) وهو أكبر فنّان فارسى تبوّأ ذروة المجد من رسومه الفنّية ، وكان ممتازاً فى إخراجها ، قوىّ الافصاح عن مقصوده ، ولكنه بالرغم من هذا المجد التالد والفنّ الخالد ، فاننا لا نجده قد قام بأيّة ثورة على هذه القيود — كما يسميها البعض — ولم يحاول أن ينتزع نفسه من ربقة التقاليد وترسم الآثار ، ولم نشهد له محاولة ولو ساذجة تجعلنا نقول إنّ هناك تباشير تطوّر أو حركة تجديدية ضد ما تآلفوا عليه ، بل رأيناه وخلفه يسيرون على منهج واحد ، كأنما استسهلوا هذه الطريق المعبّدة ، ولكنهم على أى حال ، وإن كانوا قد انصرفوا عن هذا الطريق ، إلاّ أنهم جميعاً كرّسوا جهودهم وصرفوا قواهم فى إبداع آيات خالدات فى الفنّ ، تشهد لهم بالعبقرية ، وحسبهم فخراً أن يهتمّ المتحف البريطانى فى انكلترا بلوحات الفنّانين قاسم على والسعدى وغيرهما من أقطاب الفنّ الفارسى

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن الفن الفارسى فن لا يكتفى بالنظرة الواحدة للحكم عليه ففى ذلك شىء كبير من الاستبداد ، وهو فنٌّ عالىٌ يشهد للفرس بالدقة والبراعة

تلخيص وترجمة

حسن محمد محمود

(١) كلمة إيرانى هنا تعادل لفظة « فارسى » وقد طالعنا فصلا قيما فى مجلة (Young Asia) لأديب فارسى أثبت فيه أن اللفظ الأول هو الأصح وعلى كل فقد استعملنا اللفظين لمعنى واحد تحاشيا من التكرار

القصص

من الفن القصصى الحديث

زوج آخر ساعة

Le Mari de la Dernière Heure

للقصصى الأنجليزى ريس ديڤز Rhys Davies

ترجمة على كامل

« ريس ديڤز من أصغر القصصيين الانجليز سناً . وهو كغيره من الكتاب الانجليز المعاصرين شديد التأثر بالمذاهب الجديدة فى علم النفس ، فتراه فى قصصه يعتمد إلى التحليل الدقيق لشتى العواطف والنزعات التى تعصف بكل نفس إنسانية . والقصة التى نترجمها له اليوم قد ترجمت إلى عدة لغات حية »

نزلت ماربة من غرفة نوم والدها وقالت لعمتها فى هدوء وحزن كعادتها دائماً :

ـ لقد مات !

ـ فرفعت عمتها (آن) عينيها من فوق الانجيل الذى كان بين يديها ، وفتحت فاها حتى آخره وقد انتابها فزع عظيم ، ثم بحثت عن منديلها ومسحت به عينيها العجوزين اللتين لا تتسربت اليهما الدموع ، ثم بكت وهى تقول :

ـ إنهم يذهبون جميعاً قبلى !

وفتحت ماربة الدولاب وتناولت منه (التريكو) وجلست أمام النار كعادتها كل مساء ، وأخذت تشتغل باهتمام برغم ضجرها وتعبها من السهر الطويل وعنايتها بالميت

فنظرت اليها عمتها وهى تكاد تصعق من الدهشة ، ودب فى جسمها النشاط وصرخت فى وجهها قائلة :

ـ تحركى يامارية ، ليس هذا وقت (التريكو) . اذهبى وابحثى عن الستائر لتغطى بها النوافذ . ويجب أيضاً أن تغيرى للميت ملابسه ونقوم له بكل ما يلزم

على أن ماربة لم تتحرك ، وبرغم أنها كانت منهوكة القوى كان يظهر عليها دلائل فرح مرير ، فقد كان يبدو لها أنها تحررت مرة واحدة من قيود عنيدة مؤلمة ، كانت تقول بصوت منخفض مخاطبة عمتها (آن) :

ـ لقد كان والدى رجلاً قاسياً يا عمتى (آن) ، وكان كل يوم عنده يوم أحد . لقد جعل من هذا المنزل (مدرسة يوم الأحد) وكم من مرات حقدت عليه وكرهته ، وكانت والدتى تشبهه . وكنت أنا بين الاثنين كأننى فى جحيم لا يطاق

فى أثناء ذلك كانت عمتها (آن) تصعد تنهدات الحزن والألم . قالت الفتاة :

ـ إنها الحقيقة المرة ، والآن وقد مات الاثنان فانى أستطيع أن أحكم عليهما . لقد جعلا منى فتاة عجوزا لم تر من متع الحياة شيئاً . فكنت لا أعرف غير الانجيل من الصباح وعند الظهر وفى المساء

كانت الفتاة تتكلم بصوت ملؤه الحقد والعداوة ، وكانت ترتعش حسرة على نفسها . كانت تفكر فى تلك الجثة الراقدة فى الطابق الأعلى والسخط مستول عليها . كانت تريد البكاء ولكن دمعة واحدة لم تجد بها عيناها . وكان وجهها الغليظ الذى بدا عليه الغضب والكبرياء منكباً على (التريكو) الذى بيدها . قالت :

ـ والآن وقد ضاعت خير أعوام حياتى فى العمل فى سبيلهما ، فسأبقى بقية حياتى وحيدة ، ولو كانا تركانى أخرج من المنزل لاستطعت أن أجد الفرصة لأتزوج

قالت عمتها :

ـ مهلاً . إنك لازلت فى الثلاثين من عمرك ، وفى استطاعتك الآن أن تجتهدى فى إيجاد زوج لك . إنك يامارية فتاة قويمة الأخلاق تحسنين الطهى . إنك لست كفتيات اليوم

الطائشات ، وهناك كثير من الرجال الذين يبحثون عن فتاة مثلك ليتزوجوها

واستمرت مارية تشتغل فى صمت . . . ثلاثة وثلاثين عاماً ! قبيحة المنظر غليظة الجسم منكسرة القلب ! أى رجل ذلك الذى يريد مثل هذه الفتاة فى هذه الأيام ؟

وتملكها خوف عظيم وهى تشتغل ، كم من الأشياء فقدتها فى الحياة ! لقد أدركت تماماً أنها كانت تعيش بعيدة عن عالم المسرات والملذات ، والآن فات وقت التمتع . ولكن ألم يعد هناك أمل فى شئ ؟ قالت الفتاة :

ـ إننى أظن يا عمتى (آن) أنه يحسن أن أبيع هذا المنزل وأقيم على ساحل البحر

فأجابت المرأة العجوز على الفور فى غضب :

ـ لا تبادرى ببعثرة المال الذى تركه لك أبوك . هلا فكرت فىّ ؟

وأجهشت العمة بالبكاء :

ـ هاهو ذا المال يامارية قد ابتدأ يجعل منك فتاة منطفئة الآمال قاسية القلب . إننى أعرف نفسيتك الآن

وخرجت العمة لرؤية الميت . وابتدأت عينا مارية الزرقاوان المنطفئتان تلمعان من جديد ؛ إن التفكير فى المال الذى ورثته وفيما يمنحه هذا المال من السلطان ، قد جعل حرارة السعادة تدب فى جسمها الغليظ . غير أنها كانت تود أن تكون أصغر سناً مما هى الآن . وكانت تعرف أيضاً أنها قبيحة المنظر

ودخلت العمة آن قادمة من غرفة النوم وهى تقول : لقد رحل إلى العالم الآخر . إن وجهه جميل وطاهر ، والآن يا مارية أى مجهز نعهد اليه بالقيام بحفلة الجنازة ؟

فأجابت مارية :

ـ جون چونز . إنه أرخص من توماس إيفانز

ـ ولكن إيفانز ممن ينتسبون إلى الكنيسة القديمة . إن الذين يحترمون أنفسهم لابد يفضلونه ، وعرباته أيضاً أكثر جمالاً .

فقالت مارية بصوت الآمر :

ولكننى أفضل چون چونز . لقد كنت معه فى المدرسة وكان دائماً معى رقيقاً

فأجابتها العمة آن وقد أخذها الغضب :

ـ إنه رجل أعزب طماع

وذهبت مارية وأحضرت الأقمشة البيضاء لتغطى بها النوافذ ، وكان ذلك علامة على أن الموت قد عرف طريقه إلى المنزل . ولم تكد تمضى عشر دقائق على ذلك حتى كان سيل الجيران قد ابتدأ يتدفق ليروا الميت . وكانت العمة آن جالسة بجانب جثته . بينما كانت مارية فى الطابق الأرضى تصغى بسخرية إلى كلمات المجاملة والعزاء التى يوجهها اليها الزائرون

قالت إحدى النساء :

ـ ولكنك سوف تكونين فى سعة من العيش ، فلقد ترك أيضاً وراءه مقادير مخبأة من المال لا بأس بها . لقد كان دائماً متبصراً يا مارية . كان يشح من أجلك

فمطت مارية شفتيها بسخرية وابتسمت ابتسامة باردة وقالت :

ـ إن كل ما هنا قد عاد إلىّ . ولكنك عديمة الفطنة يامسز هاولز . إنك تفكرين دائماً فى المال . .

آه ! مثلك أنت . إنه يبدو عليك أنك فتاة غير طبيعية من كل الوجوه يا مارية ، ألا تذرفين دمعة واحدة على أبيك المسكين ؟ ها أنت جالسة ككتلة من الثلج ، لا تعرفين الكلام إلا فى كل ما لا يتفق مع الموقف الذى أنت الآن فيه !

وكان الجيران خارج الغرفة يتكلمون عن عدم تأثر الفتاة وجمود عينيها اللتين لم تعرف الدموع اليهما سبيلا ؛ ولكن مارية كانت جالسة فى هدوء ، مفعمة القلب بالأحتقار والعداوة للجميع ، متمتعة فى أعماق نفسها بأن تكون موضع أحاديث الناس ، هانئة بذلك الدخل الذى سوف تناله عما قريب . وعندئذ شعرت أنها أصبحت مستقلة طليقة ، وفى نفس تلك الليلة آوت إلى سريرها فى فراشها الوثير باستسلام شهوانى . وكأنما الموت الذى أقبل إلى المنزل قد فتح فى أعماق نفسها منبعاً من السرور العجيب

* * *

وفى صباح اليوم التالى أرسلت مارية عمتها (آن) لتبحث عن المجهز ، فخرجت آن وهى تتمتم بعبارات السخط والغضب ، ولكنها كانت تتعزى كلما فكرت فى أنها ستفوز بخمسة شلنات ، لتشترى بها ثوباً أسود وقبعة . كانت تقول لنفسها وهى تبكى :

ـ وإن دفنه بيدى چون چونز سيقلقه فى مقره الأخير . فعرباته القديمة فرشها حقير للغاية . إنى أخجل منه

وعاد المجنز معها واستصحبته الى الدور الأعلى لكي يقيس جثة الميت ، ثم نزل الى الصالون حيث انتظر مارية

وجاءت مارية ، فبادرها بقوله :

ـ ما أكثر وقار وجهه يا مس مورجنز

فأجابته مارية فى الخيال بنظرة خبيثة قائلة :

ـ إن وجهك أنت سيكون أكثر هدوءاً ووقاراً حين يتوفاك الله !

فسألها وهو يهز رأسه الصغير :

ـ وكيف ذلك ؟ لقد عشت حتى الآن عاقلاً رزيناً

فقالت بخبث وهى تبحث له عن كرسى :

ـ لقد كنت فى المدرسة صبياً ماجناً خداعاً ، اجلس الآن ودعنا نتكلم فى الموضوع

كان چون چونز شاباً نشيطاً عصبياً أشبه بعصفور . ألقى چون چونز قبعته بجانبه ، وفرك يديه ثم وضعهما على ركبتيه النحيلتين كركبتى مراهق ، وكان يحاول عبثاً أن يتظاهر بالبرود الحزين الذى يتناسب مع مهنته ، فقد كان خفيف الحركة ، ويبدو كأنما يثقله العمل الكثير ، وكانت لحيته كأنها محلوقة متذبرهة وجيزة ، كما أنه لم يكن ناجحاً فى عمله كمنافسه

قال چون چونز ، وقد بدا على وجهه نوع من الاهتمام :

ـ أى نوع من التوابيت تفضلين ؟

وعندما نظرت اليه مارية نظرة باسمة احمرت وجنتاه وتولاه الاضطراب . سألته قائلة :

ـ كم الثمن الذى تريده ؟

كانت مارية جالسة أمامه وجهاً لوجه تناقش الأثمان عكر ودهاء عجيبين ، وقد مطت شفتيها الغليظتين ، وبدا عليها التفكير والانتباه ، مما جعله يعجب بها برغم سخطه . وبعد حساب طويل ، قال :

ـ إن كل شىء سوف لايتكلف أكثر من عشرين جنيهاً ،

فهزت مارية رأسها قائلة :

ـ ان توماس إيفانز يأخذ أقل من هذا

فقفز چون چونز من على كرسيه ، وقد تملكه الغضب وقال :

ـ إنك يهودية الى آخر حد يا مارية مورجنز ، إنه لايليق أن تكونى شحيحة هكذا فيما يتعلق بالآتم

فوقفت مارية أيضاً ، وقد احمرت وجنتاها من الغضب وصرخت :

ـ إنك تريد أن تسرق الأيتام الفقراء ، تريد أن تربح من فتاة لم يعد لها أب !

فضحك چون چونز ساخراً :

ـ أيتام فقراء ! إننى متأكد أن والدك قد ترك مالاً وفيراً ، ولكن ابنته تريد أن يدفن كما يدفن رجل معدم

وفرقع أصابعه بعصبية ، ونظرت مارية اليه طويلاً ، وقد انخفض جفناها وعاد اليها خبثها من جديد ، ثم قالت :

ـ إننى أحب أن أراك غاضباً مهتاجاً ، إنك بهذا تكون أكثر رجولة ، ولكنك الآن أكثر غضباً مما يجب أن يكون عليه (حانوتى)

كان چون چونز يسائل نفسه : كيف يترك هذا الرجل الموقر وراءه مثل هذه الفتاة الوقحة ذات اللسان البذىء ! على أنه تذكر تجارته التى كانت آخذة فى التدهور ، فقال بهدوء :

دعينا من هذا يا مس مورجنز ، كونى أكثر عدلاً ، سوف أنظم لك جنازة فخمة بتسعة عشر جنيهاً ونصف جنيه

وطلبت مارية من عمتها أن تحضر الشاى لچون چونز ، وأخرجت هى خير ما عندها من الحلوى والفاكهة وأعطته منها كمية كبيرة

* * *

وفى يوم الدفن كان المطر يسقط مدراراً ، والسماء مكفهرة ، والجو رديئاً . وكانت مارية حزينة لأنها أنفقت كثيرا من النقود فى شراء فستان أسود جميل وقبعة ، كانت تقول لنفسها بعصبية متنقلة بين الحوانيت :

ـ سوف يعرفون أنه حتى مس مورجنز الفقيرة الملبس تستطيع أن تبرهن على أنها سليمة الذوق

على أن المطر ضايقها كثيرا ، فقالت لعمتها (آن) وهى ساخطة فى صباح يوم الدفن :

ـ سأضطر للذهاب لشراء معطف للمطر وشمسية جديدة ، إننى دائماً سيئة الحظ ، فسوف يكون هذا النهار رديئاً

كان المطر يسقط والرياح تصفر بقوة شديدة بالقرب من

المقبرة ، وكانت مارية واقفة بجانب القبر متكئة بجسمها الضخم على ذراع ابن عمتها تفكر فى شمسيتها الحريرية الجديدة وتنعم النظر فى الزهور التى تداعبها الرياح ، وتفكر بحسرة مريرة فى شبابها المنطفىء . آه ! ولكن كم من الأوقات الطويلة السعيدة ستتمتع بها حين ينتهى كل ذلك ! لا ، إنها سوف لا تبيع منزلها وتعيش بعيداً ، فستكون مجهولة لا يعرفها أحد إذا ذهبت الى مكان آخر ، سوف تشترى كمية من الفساتين وتنشر (الموضة) فى الحى الذى تعيش فيه ، وتدهش صديقاتها . وسرعان مارأت نفسها تنزل الى الدور الأرضى من الكنيسة فى روعة يحسدها عليها الجميع . ولكن عند ما أخذ الجميع يرتلون الترتيلة المحزنة الأخيرة فكرت من جديد فى ألوان السعادة التى حرمت منها ؛ وأخيراً بكت ، تخفف بكاؤها كثيرا مما يثقل قلب عمتها (آن)

وعند ما أخذت مكانها فى العربة أقبل (الحانوتى) وفى يده غطاء غطى به ركبتيها وعلى وجهه أمارات التأثر ، ثم قال :

ـ إن داخل العربة بارد . إنك قادرة على كتم عواطفك بشجاعة ياعزيزتى مس مورجنز

فأجابته بشموخ :

ـ أشكرك يا چون چونز ، أظن أنه لابد لك من شلن من أجل هذا الغطاء !

وعندما دخل الجميع العربة اتجهت اليها عمتها (آن) وقد بدا عليها الغضب ، وقالت :

ـ إنك تتصرفين كما لو كنت قطعة من الخشب ، لقد أفسدت علىّ عملية الدفن ، وكنت خجلة منك الى أقصى حد

فقال ابن عمة الفتاة فى صوت متأثر :

ـ يا عزيزتى ، لقد بكت عندما كنا نرتل الترتيلة الأخيرة ،

فأجابت العمة :

ـ آه ، عندما كان كل شىء قد انتهى تقريباً . سوف يتكلم عنها كل من كانوا بالكنيسة

فقالت مارية بكبرياء :

إن كل ما يقولونه لا يهمنى ، وأنت يا عمتى (آن) عجوز مرائية ، إننى أعرفك جيداً

ثم قالت ساخرة :

ـ إن كل مافى المسألة أنك تحسدينني من أجل ثروتى لاغير !

وعند ما وصلوا إلى المنزل صعدت مارية إلى الطابق الأعلى لكى تخلع حذاءها الضيق الذى جرح أصابع قدميها . وكانت جموع الناس قد اجتمعت منتظرة الطعام الذى يعد عادة بعد الجنازة . وكانوا يعلقون بأصوات خافتة من الجوع على كل ما حدث فى الجنازة . أما مارية فقد فتحت صندوقاً مغلقاً بمفتاح ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة . وأخرجت منه علبة المسحوق الأبيض التى اشترتها بعد موت والدها ، ودهنت أنفها اللامع وخديها النحاسيين ، وهى فى غبطة وسرور من هذا الأثم الجديد . وبعد ذلك لبست قرطها بهدوء . ثم اتجهت نحو السلم فرحة منتفخة كأنها ملكة مهيأة من جديد للنزول وعليها أمارات الأبهة والجلال . وفى أثناء نزولها سمعت أصوات بعض النسوة اللائى كن يتكلمن عند المدخل بصوت منخفض ، فوقفت تنصت إليهن ، فسمعتهن يذكرن اسمها . قالت إحداهن :

ـ لقد كانت دائماً سخيفة غبية . ولكنها اليوم كانت حقاً وضيعة النفسية لا يحمل قلبها ذرة من النبل . لقد كانت معجبة بملابسها السخيفة كأنها فى حفلة زواج

وقالت الأخرى :

ـ ألم تكن تفكر أنه كان يجب عليها أن تبكى على الأقل اعترافاً بالجميل من أجل ذلك المال الكثير الذى تركه لها

ـ لقد كانت كشخصية مضحكة فى مأساة محزنة . ما هذه القبعة التى كانت تلبسها ! أى مرض فى الذوق ذلك الذى جعلها تلبس هذه القبعة فى جنازة أبيها !

ونزلت مارية بهدوء . وعند ما أحست النسوة بقدومها ابتدأن يتكلمن بأسى عن ساعة الدفن ، ونظرن إليها بعيون كلها شفقة ورثاء . فنظرت إليهن مارية ، وقد كشرت عن أنيابها وصاحت :

ـ أخرجن من منزلى يا ذوات الألسنة البذيئة . أخرجن من هنا !

فجرى النسوة من وجهها الغاضب . ولكن إحداهن صاحت لدى الباب :

ـ امسحى هذا المسحوق الأبيض الذى على وجهك ليتها الفتاة المفتونة !

* * *

وبعد أسبوع ذهب چون چونز إلى المنزل ومعه قائمة حسابه

فأدخلته مارية إلى الصالون ، ووضعت على الطاولة تسع عشرة ورقة من ذات الجنيه ، فعد (الحانوتى) النقود بعناية . ثم التفت اليها وقد احمرت وجنتاه . ثم قال رافعاً صوته :

ـ أرجـو يا مس مورجنز أن تعطيني النصف جنيه الباقى .

فأجابته :

ـ إذن قدم لى حساباً عن هذا المبلغ الضخم . لقـد كانت الجنازة متواضعة

فصاح وهو يهز قبضته بانفعال شديد :

ـ سوف أذكر لك ذلك أمام المحكمة . نعم سأقاضيك مطالباً بمبلغى أيتها المرابية الشحيحة !

كانت مارية متشحة برداء من القطيفة السوداء . لابسة عقدها وقرطها . معلقة ساعتها فى ردائها الضيق الملتصق بجسمها الفصل على آخر طراز . قامت مارية من على كرسيها وقالت بطريقتها الانجليزية الرشيقة :

ـ لست ممن يتناقشون مع الحانوتى من أجل نصف جنيه . لقد كنتُ أظن أنك رجل مهذب ولـكن يظهر أنني كنت مخدوعة

ظل چون چونز صامتاً وكأنه تذكر فجأة شيئاً . فنظر اليها بعينيه اللامعتين اللتين تشبهان عينى قرد ، وقد بدا عليـه الألم والحسرة ، ولـكن مارية خرجت من الغرفة ببرود وعادت وفى يدها كيس من التيل ، وأخرجت منـه حزمة منتفخة من أوراق البنكنوت . فنظر چون چونز الى النقود . وقال بصوت تبلله الدموع

ـ اغفرى لى ثورتى يا مس مورجنز . لقـد نسيت فى فترة غضبى الخسارة المؤلمة التى انتابتـك . يا إلـهى ! كم ستشعرين بالوحدة ، إن عمتك ليست الرفيق اللازم لفتاة شابة . هلا وضعت بعد مشروعات تقومين بها فى المستقبل ؟

لقد كان قلبه الصـغير الحساس يخفق حقيقة بحرارة رحمة بمارية التى لا أنيس لها . وابتسمت مارية ابتسامة خفيفة ، وهى تعبث بيـدها فى أوراق البنكنوت ، بينما چون چونز ينظر اليها وعليه أمارات التأثر

أجابت مارية :

ـ إننى لست متعجلة . فسوف أعيش عالى فى بسطة من العيش

فقال چون چونز :

ـ حقاً . ويمكنك أن تحصلى على ثمن جيد لهذا المنزل وللأربعة منازل الأخرى التى تقع فى طريق المناجم . إنهم خالون من حق الارتفاق . أليس كذلك ؟

فقالت مارية ضاحكة

ـ إنك تريد أن تعرف كل شىء !

وخرجت ثانيـــة حاملة معها الـكيس ، ثم عادت ومعها زجاجة من النبيذ الفاخر وطبقاً من البسكويت . صرخت مارية بنشوة وافتخار رافعة الزجاجة إلى أعلى :

ـ إنها الأولى فى هذا المنزل

فقال چون چونز ضاحكاً أيضاً

ـ لقد كان والدك مدمناً على شرب الماء !

وبينما كانا يشربان كانت مارية تنظر من النافذة بنشوة كأنها فى حلم . ولـكنها لا حظت أن الحانوتى يرمقها بنظرات عصبية

قالت مارية :

ـ لا ، إنى لم أضع بعد مشروعات . كنت أريد أن أنتقل من هذا المنزل . ولـكن فتاة غير متزوجة لابد أن ستشعر بالوحدة المضنية فى مكان غريب . أما إذا وجدت زوجاً . . . . ورفعت عينيها الذابلتين نحوه . وكان هو من ناحيته ينظر إليها بتحديق شديد

لقد كان ذلك أكثر مما كان يأمل ، فشرب قدحه سريعاً ، ثم رفع كوبته بيد مرتعشة وانحنى على ركبتيه أمامها ، وأمسك بيدها وهو يتكلم بعبارات سريعة مضطربة قائلاً :

ـ خذى يا عزيزتى مس مورجـنز . إننى أنا أيضاً أغرب وحيد . لقد أحببتك منذ أن رأيتك أثنـاء دفن والدك هادئة ووحيدة . حقاً إننى أحبك . إننى أشعر فى أعماق نفسى بشىء غريب نحوك

ـ فأخذت مارية تضحك ضحكاً طويلاً لا ينقطع ثم قالت :

ـ حسناً ! حسناً ! إنها مصادفة عجيبة . لقد كنت أعتقد ياچون چونز أنك بخيل لدرجة أنك لا تستطيع أن تحب . هل تحبنى من أجل ذاتى ؟

فقال چون چونز بحزن :

ـ إنك قاسية خبيثة

فأجابته فى الحال بحدة :

ـ أوه ! إننى لا أشعر بالحب نحو أى رجل ما . إننى أريد أن أتزوجك ليكون لى اعتبار فى أعين الناس . والآن كم يكون هذا مفاجأة عجيبة بالنسبة لأولئك النسوة جميعاً !

على فاضل

من هنا ومن هناك

ضوء جديد على قضية دريفوس

نعرف ما لقضية دريفوس الشهيرة من أهمية وآثار بالغة فى تاريخ فرنسا المعاصر السياسى والاجتماعى . وقد مضى اليوم زهاء ثلاثين عاماً على خاتمة تلك القضية الشهيرة التى حكم فيها على الضابط البرىء الفريد دريفوس بالنفى والتجريد ، واستمرت أدوارها بين إعادة نظر ونقض وأحكام مختلفة مدى عشرة أعوام ، تأثرت خلالها الحياة الفرنسية العامة أيما تأثير ؛ ثم حكم نهائياً بتبرئة الضابط المظلوم ورد اليه حقوقه واعتباره . ومع ذلك لم تُقل بعد آخر كلمة فى هذه القضية الشهيرة . فقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية بقلم هنرى ما زيل عنوانه « تاريخ قضية دريفوس ونفسيتها » يذهب فيه المؤلف إلى رأى جديد يوفق فيه بين رأى القائلين ببراءة دريفوس ، ورأى خصومهم ، وأنه لم يكن فى المسألة كلها خائن ولا متهم ؛ وأنه إذا كان ثمة متهم ، فهو متهم من نوع خاص لأنه لم يكن سوى الكولونل شفارتز كوبن الملحق الحربى للسفارة الألمانية ، فهو الذى دبر الدسيسة كلها ، وعمل على تغرير أركان الحرب وخديعته

ذلك أن الكولونل لاحظ منذ مدة أن مدام بستيان خادمة السفارة تحمل دائماً قصاصات الورق التى يلقيها فى سلة المهملات إلى قلم المخابرات الفرنسى ؛ ففكر عندئذ فى أن يخترع حكاية « البردرو » وهى الوثيقة التى كانت أصل القضية كلها ، فكتب عندئذ هذه الوثيقة بنفسه ، مقلداً فيها خط الضابط استرهازى الذى كان لديه نماذج من خطه لأنه كان يكاتبه ؛ ولما كتب الوثيقة مزقها بعد ذلك ، وألقاها فى سلة المهملات ؛ فأخذت مدام بستيان القصاصات كالمعتاد إلى قلم المخابرات

ويؤيد مسيو مازيل رأيه بأدلة منها أن « البردرو » كان مكتوباً بفرنسية ركيكة لا يمكن أن تصدر من ضابط فى أركان الحرب مثل دريفوس ، ولا يمكن أيضاً أن تكون من كتابة استرهازى لأنه كان يكتب خطاباته دائماً فى أسلوب مختار ؛ وكل الدلائل تدل على أن « البردرو » إنما كتبه رجل بالفرنسية يفكر بلغة أخرى

وقد أثارت نظرية مسيو مازيل اهتماماً كبيراً فى دوائر التاريخ والقضاء ؛ ونالت تأييداً كبيراً

آثار ملكة سبأ

ما زالت اساطير المصر القديم التى تجرى مجرى التواريخ تثير طلعة الباحثين والمكتشفين ؛ فهم يحاولون فى فلسطين مثلاً أن يعثروا بآثار سليمان وداود ؛ ويحاولون أن يكتشفوا بقايا « ارم ذات العماد » فى بلاد العرب . وهنالك من يحاول أن يكتشف آثار ملكة سبأ فى بلاد الحبشة ، وذلك هو الكونت بيرون دى بورك العلامة الأثرى البولونى ، وهو ممن يعشقون الأساطير القديمة ويهيمون بتحقيقها ، وقد اكتشف من قبل فى تلك المجاهل قبر « تيئى هتان » الذى كان يعتبر من قبل خرافة ، ومنذ أشهر عاد إلى الحبشة من طريق السودان المصرى ، ليحاول البحث عن مناجم سليمان الذهبية ، وآثار ملكة سبأ الشهيرة ؛ وعكف على البحث مدى حين فى هضاب بلاد يامو ؛ ولكنه لم يظفر بآثار حقيقية تكشف عن حقيقة تلك الأساطير الشهيرة ؛ بيد أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المعلومات الأثرية الهامة عن تلك المنطقة ؛ وربما عاد فى فرصة قريبة ليستأنف مباحثه

والواقع أن من الصعب أن نقتنع بصحة أمثال هذه الأساطير من الوجهة التاريخية . وقد يكون لبعضها أساس تاريخى ، ولكن الأسطورة تحيط به وتجرده من حقيقته الأولى لتخرجه لنا فى ثوب خرافى محض . ومن هذا القبيل أسطورة قبر « الأسكندر » المقدونى ، وكونه قد دفن بالأسكندرية ، فقد اهتم المستر هوارد كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون بهذه الرواية . وأخذ بالفعل يبحث عن تحقيقها تمهيداً لاكتشاف قبر الأسكندر . على أن لهذه الأسطورة مهاداً أخرى ، إذ يروى أن الأسكندر دفن بالشام ، أو ببلاد الفرس ، وقد ذهبت جهود العلماء لتحقيقها سدى منذ نصف قرن

التنافس بين الفاشستية والهتلرية على استعباد الشعوب

كثر الجدل أخيراً بين الصحف الألمانية والصحف الايطالية، وانفردت الصحف الألمانية الى جانب الصحف الروسية بالحملة على مشاريع إيطاليا وجهودها الاستعمارية، ولاسيما في بلاد الشرق الأدنى. وتنتهز الصحف الألمانية هذه المناسبة للحملة على « الفاشستية » والمقارنة بينها وبين « الاشتراكية الوطنية » (الهتلرية) الألمانية؛ وقد نشرت مجلة « فولك أوند رخت » (الشعب والحق) البرلينية أخيراً فصلاً تندد فيه بخطط إيطاليا وبالفاشستية الايطالية، وتقول إن سلام شعوب الشرق الأدنى لا تحققه الفاشستية التي هي في الواقع عنوان عصر قد ختم؛ أما « الاشتراكية الوطنية » فهي بالعكس نظام جديد، قد خلق أسلوباً جديداً للتفكير يعارض كل ما تذهب اليه النظرية الغربية في شأن الدولة والرأسمالية، ولا سلام للشرق إلا باعتناق مبادىء الاشتراكية الوطنية. وقد ردت جريدة « جورنالي ديتاليا » الايطالية على هذه الحملة، فقالت إنه يراد أن يخلق تعارض بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية، وأن يتخذ من هذا التعارض أساساً لمنافسة سياسية تزمع ألمانيا أن تقوم بها ضد إيطاليا في الشرق الأدنى، وتسلم الصحيفة الايطالية بوجود فروق جوهرية بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية، ولكنها تنوه بما تقوم عليه النظرية الألمانية من التفاضل بين الأجناس، وأنها تطالب بوحدة الأمم من الوجهة الجنسية. والواقع أن أمم الشرق الأدنى تتكون اليوم من مزيج من الأجناس المختلفة، وتتكون كل منها حول الجنس الغالب؛ فاذا فكرت في ألا تطبق المبادىء الهتلرية فعليها أن تمزق نفسها مختارة، وأن تتنازل عن أجزاء من أراضيها تعمرها الأجناس الدخيلة أو المنحطة

وهكذا يتم هذا الجدل عن غايته، فأنصار الاشتراكية الوطنية يزعمون أنهم أحق باستعمار الأمم وبسط نفوذهم عليها؛ ويعارضهم أنصار الفاشستية في هذه الدعوى؛ وأمم الشرق تستهدف في الحالين الى مطامع الاستعمار ودسائسه؛ ومن المفيد أحياناً أن تتبع الأمم الشرقية مثل هذا الجدل لتقف على ما تبطنه الفاشستية الايطالية أو الهتلرية أو غيرها من الدعوات والمبادىء الخلابة نحوها من ضروب الغدر والعدوان

المسرح والسينما

كتب كاتب في جريدة « الطان » نبذة شائقة عن المسرح والسينما وما يضطرم بينهما من منافسة ينوء بها المسرح. ومنذ حين يثور الجدل حول هذا الموضوع، وتتجه معظم الآراء الى أن تقدم الفن السينمائي كان ضربة قاضية للمسرح، وأن المسرح يتدهور بل ينحدر الى الفناء بسرعة، وأن السينما قد انتزعت منه معظم روّاده ومحبيه. ويقول لنا كاتب « الطان » إن هذه الجلسات السينمائية الصغيرة، ومناظرها الشعرية الغريبة، قد خلبت حقاً ألباب الناس، غير أنه يذهب الى رأي جديد فيما يتعلق بتقدم الفن السينمائي؛ فهو يرى أن السينما ليس لها من الوجهة الفنية عدو ألد من نفسه، وأخطر من نجاحه، فهو من من جهة عبد القوة المالية يطيعها طاعة عمياء، ومن جهة أخرى عبد المخرجين (مخرجي المناظر). ولما كانت الأشرطة السينمائية لغة عالية، فان مخرجيها لا يفكرون إلا في إخراج أشرطة ومناظر تجتذب أعظم مجموعة من الرواد، ويمكن أن تعرض في نفس الوقت في يوكوهاما وبرلين وباريس ولندن ونيويورك وشنغهاي، والنجاح يغدق المال. على أن هذا النجاح نفسه يحمل المخرجين على أن يتحروا دائماً التأثير في العدد، ونجاح الكمية لا نجاح النوع، ومن ثم كانت جمهرة « الأفلام » المماثلة في المناظر والأذواق العامة، وهي مناظر أصبحت معروفة يتوقعها ويتنبأ بها الجمهور بلا مشقة، وهذا الاتجاه المادي المحض الذي يتخذه الفن السينمائي يثير اليوم بين الكثيرين ضجراً وخيبة أمل، وهؤلاء يرون أن الفلم لم يعد يرضي أذواقهم وأمانيهم الفنية، وأن المسرح هو الكفيل بتحقيق هذه الأذواق والأماني

ولهذا يتجه الكثيرون اليوم صوب المسرح، ويعود المسرح فيحرز بعض النجاح والانتعاش، ولكنه انتعاش بطيء يحتاج الى وقت غير قصير، غير أنها على أي حال ظاهرة تدعو الى التفاؤل. وفي وسع أنصار المسرح والفن المسرحي أن ينتهزوا هذه الفرصة فيضاعفوا جهودهم لتجديد المسرح من الناحية الفنية؛ ويستطيع الكاتب المسرحي أن يؤدي في ذلك التجديد دوراً خطيراً، إذا استطاع أن يزود المسرح بطائفة من الآراء والمناظر المبتكرة

البريد الأدبي

في نادي القلم العراقي

عقد نادي القلم في بغداد جلسة في دار أحد الأعضاء، وقد ألقى في هذا الاجتماع رئيس النادي الأستاذ رضا الشبيبي محاضرة عن (المجريطي: فلسفته ومكتشفاته) وهي نتيجة دراسة كتاب من أهم كتب المجريطي، وهو من أنفس الآثار العربية النادرة اسمه «غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم»، وبعد أن ألم المحاضر بتاريخ المجريطي قائلاً في هذا الباب إنه صاحب رسائل (إخوان الصفا) الأندلسية التي ألفها على نمط (رسائل اخوان الصفا) العراقية فبذر فيما بذر التفكير العلمي في أذهان الأندلسيين، فلم تلبث الفلسفة أن ازدهرت في العصور التي تلي عصره في الأندلس، وجاء منها أمثال ابن رشد وابن الصائغ وابن طفيل وبني زهر وغيرهم من أعيان الفلاسفة والمفكرين. وذكر أيضا أن المجريطي عالج عدة موضوعات تاريخية وفلسفية، وهو مؤلف كتاب (تاريخ فلاسفة العرب) ترجم فيه الكندي وغيره، وقد استظرف الكندي رسالة موضوعها (كمية بقاء دولة العرب) (؟)

وبعد ذلك شرع المحاضر يسرد نتيجة دراسته لهذا الأثر من آثار المجريطي وقال: يستفيد من هذا الكتاب، أي كتاب غاية الحكيم، من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة البشرية في أقدم عصورها، ومستنبطات الأمم العريقة في القدم من أنباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم، ومكتشفاتهم وجهودهم في تقدم العمران؛ وبعد أن أورد هذا ونحوه قال: لا أستبعد أنا والحالة هذه أن يكون لآراء المجريطي ومكتشفاته أثر في عمران الأندلس وازدهارها خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية، وإن سكت المؤرخون عن ذلك كله. واستنتج من مواضع أخرى من الكتاب أن المجريطي فيلسوف يميل إلى الدراسة الشاملة، ولكنه يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة، ولا يذعن إلا لأحكام العدد والأرقام في تفكيره. وأنه مفكر من طراز أعظم مفكري العصر في الرياضيات والطبيعيات. وينحو من بعض الوجوه منحى الرياضيين الأوربيين في محاولة إخضاع قوى الطبيعة واستخدامها لرفاه الأنسان ورفع مستواه في سلم الحضارة، هذا ونحوه (البلاد البغدادية)

للحب والتاريخ

قرأت في الرسالة السابعة والثمانين نبأ «عيد الربيع القومي في سورية» وأن (فريقاً كبيراً من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية عقدوا اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومي في الربيع وأطلقوا عليه اسم عيد الربيع القومي). فعجبت من نفسي! كيف أكون في صلب دمشق، وأكون أشد الناس صلة بمثل هذه المشروعات، ثم لا أسمع بهذا الخبر إلا من مصر... وإني لأصفح «الجزيرة» كل يوم يتفضل منشئها الفاضل فيبعث بها إليّ. ولكن من طبعي أني لا آكل الجوز بقشره... وأني أتخير اللباب من كل شيء، ولذلك لم أقرأ هذا الخبر في الجزيرة». أما وقد نشر في «الرسالة» والرسالة ديوان العرب، وكتاب الشرق، فلم يبق من قراءته والتعليق عليه بدّ، كيلا يعلق منه شيء في نفوس القراء، ويبقى محزاة خالدة لدمشق

والحق أن شيئاً مما قالوا لم يكن، وأن هذا الاجتماع لم يعقد إلا في رأس كاتب هذا الخبر، وأن لطلبة الجامعة السورية لجنة تنطق بلسانهم، وتنوب عنهم، ولم يدع واحد من أفرادها إلى اجتماع، ولم تدع هي أحداً إلى اجتماع لمثل هذا... ولها مشاغل وأعمال هي خير لهذه الأمة وأجدى عليها من تأليف مواكب (تمثل أزاهير دمشق)... ورئيسها الشاب العالم الفاضل الشيخ معروف الدواليبي رجل مسلم يكره أن يدخل باخوانه «جُحر الضب»!

(أما المدرسة التجارية « العليا » (؟) التي يقوم أحد طلابها برحلة إلى شمال سورية من أجل هذا المشروع !) . فجماع أمرها أنها دار في طريق الصالحية استأجرها قنصل إيطاليا منذ شهور ، وكتب على بابها « المدرسة التجارية » واشترى لها مدرساً أدبياً كبيراً معروفاً . . . وذهب هذا وذاك ومن والاهما ، يخطبون في الناس بلغة « الذهب الايطالي . . . وفي الناس أناس عقولهم في جيوبهم ، وبطون أكفهم ، فاستجابوا لهم ، وبعثوا بأبنائهم إلى المدرسة ، فكان فيها أربعون طالباً ، من أصل أربعمائة ألف ، هم بسكان دمشق وضواحيها !

وأما المدارس الثانوية في دمشق ، فان كبراها المدرسة التجهيزية ، وأنا أعلم علم اليقين أنه ليس بين الألف من طلابها ، طالب واحد يعلم من أمر هذا المشروع أكثر مما يعلم أي قارئ من قراء الرسالة

ودمشق أعقل بحمد الله من أن تسفل في التقليد إلى هذه الدركة ؛ وإن دمشق لتعلم — إذا لم يكن من التقليد بدّ — أن في باريس شيئاً غير مواكب الزهر ، هو الجيش الذي تستعرض مواكبه يوم ١٤ يوليه . وأن فيها غير الشباب الذين يحملون الأزهار شباباً يحملون البنادق والسيوف . . .

وحسب دمشق عاراً ذلك المؤتمر النسائي ! أفلا تمشي المصيبة إلا على ساقين ؟

دمشق — علي الطنطاوي

مأدبة تكريمية

كان معظم (سان جمس) في مساء الثلاثاء الماضي مجمعاً حافلاً بصدور العلماء وأعلام الأدب وأئمة القانون وأعيان الصحافة ؛ اجتمعوا لتكريم صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وصاحب فجر الاسلام وضحى الاسلام ، وأستاذ الأدب العربي بكلية الآداب . وكانت هذه المأدبة منذ طويل حاجة ملحة في نفوس أصدقائه وزملائه الذين راقبوا عن كثب جهاده الدائب المضني في خدمة العلم والتأليف عشرين سنة ، فلما تهيأت الفرصة بانقضاء عشرين عاماً على رياسته للجنة التأليف والترجمة والنشر ، وإخراجه الجزء الثاني من ضحى الاسلام تلاقت رغبات الأعضاء والأصدقاء على إقامة هذه الحفلة ، فأقيمت برياسة الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك زعيم النهضة الفكرية الحديثة ، وساهم فيها أولياء الثقافة من رجالات وزارة المعارف والجامعة المصرية ومجمع اللغة العربية الملكي ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، فجاس المحتفلون عشرة عشرة الى الموائد الفخمة يتبادلون شهي الأحاديث في وقار العلماء واحتشام السادة ، حتى إذا فرغوا من الطعام نهض معالي رئيس المأدبة فافتتح الكلام بالثناء على جهود الدكتور طه حسين في تعرف الأدبي العربي على ضوء المناهج العلمية ، وذكر كيف تعاون (الثالوث الأدبي) طه حسين وأحمد أمين والعبادي على خدمة الثقافة العربية بتأليف فجر الاسلام وضحاه ، ثم لمح بسبق الأستاذ صديقيه إلى أداء نصيبه ، ونوه بأثر كتبه في الحياة الأدبية الحديثة ، وتساءل لماذا لا يتوج مجمع اللغة العربية الملكي هذه الكتب القيمة أسوة بالمجامع الأخرى . ثم قام من بعده صاحب الفضيلة الأستاذ المراغي فذكر في منطق عذب وبيان هادئ ، أن الدراسة في الأزهر تروض العقل على مصابرة البحث ومتابعة الدرس ورغبة الاستقصاء ، فاذا صادفت عقلاً خصيباً وخلقاً قويماً وطبعاً سليماً أنتجت أمثال (الشيخ أحمد أمين) ؛ ثم تكلم الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم فبين فضل الأستاذ على لجنة التأليف والترجمة والنشر بقوة ارادته ودقة ادارته وكرم أخلاقه ، وجودة تأليفه برياسته لها عشرين سنة متوالية . ثم تلاه الدكتور عبد الوهاب عزام فلخص الصفات الثلاث التي يمتاز بها الأستاذ أحمد أمين وهي حب النظام والدأب والتثبت وجماعها صفة واحدة هي حب الحق

ثم قام على أثره الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى فأفاض في وصف الجاذبية الروحية التي يؤثر بها الأستاذ أحمد أمين في مناظريه ومعارضيه فيبلغ بسحرها من نفوسهم مايريد ؛ ثم تكلم الأستاذ محمد كرد علي عن البلاد العربية ، والأستاذ نللينو عن المستشرقين فأجاد التعبير عما تشعر به النفوس الفاضلة من إجلال العلم وأهله . ثم كان خاتمة المتكلمين الدكتور طه حسين فأشاد بفضل الأستاذ نللينو على دراسة الأدب العربي في مصر ، ثم وفى صديقه الأستاذ الأمين ما هو أهله من التقدير والحمد ؛ ثم نهض الأستاذ المكرم فشكر الداعين والمدعوين في عبارة أخاذة الأسلوب شديدة الروعة

والرسالة ترجو أن تؤدي واجبها لصديقها الأستاذ في عدد مقبل

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

هوذا تاريخ انسان ...!

للأستاذ خليل هنداوى

وقلت للاستاذ النعيمى عقب وصوله الى لبنان : هل أعددت وراءك قرباناً آخر ؟ فأجاب : ذاك قربان انطوى ، فتحت به طريق النور ، والآن أراني سائراً الى المحجة التى فرضتها على الحياة ، أو فرضتها على الحياة . . . . فأعطانا « المراحل » وكتاب « جبران خليل جبران » (خ . ه)

— ١ —

وجه جبران خليل جبران

وما إن صدر كتاب « جبران خليل جبران » حتى تناولته الأكف ، وتهافت عليه الناس . وما إن تلاه الناس حتى ضجوا به ، وتفرقوا فى شأنه شيعاً ، شأن العظيم لايعرف أحداً معه معتدلاً ! فمن ناقم على النعيمى لأنه فضح أسرار صديق كان يجب عليه أن يحفظ حرمته بعد الموت ، ومن محبذ لأن الأدب لايعرف تستراً ! والحقيقة لاتعرف مواربة ؛ وهكذا ذهب الناس فى شأن الكتاب مذاهب مختلفة ، وللناس مذاهبهم

أراد البعض أن يدرسه جملة ، فخرج من درسه بما لايرضاه ، وشاء البعض أن يذهب فى نقده ما يفرضه الناقدون على غيرهم من أساليب جافة ، ومقاييس محدودة ؛ ومتى كان الأدب — ابن الحياة — يقبل الحدود والقيود ؟

الكتاب عظيم بنفسه ، متفرد بروحه وبطريقته وبنقده ، صارم ما شاءت الصرامة ، وعادل ما شاء العدل . ولن نتبين هذه النقطة التى تمازج فيها العدل والصرامة فى مواطن كثيرة ، إلا إذا اطلعنا على القياس الذى أعلن عنه نعيمة فى مطلع الكتاب ، وهو مقياسه الخاص فى الأدب والفن والحياة ، فاذا فهمنا هذا المقياس فهمنا الكتاب ، وإذا أعرضنا عن هذا المقياس ضاع عنا جوهر الكتاب ، والغاية التى أُلف من أجلها

لا يريد نعيمة أن يعرض فى كتابه تاريخاً له تفاصيله وله آفاقه ؛ والبشرية — فى اعتقاده — لم تكتب حتى الآن تاريخ إنسان ولا تاريخ شىء على الاطلاق ، وإنما أراد أن يجرى فى درسه لحياة جبران مع عقيدته الشائعة فى نفسه « إن الفن مهما تسامى فى

الأوزاعى

(بقية المنشور على صفحة ٤٢٠)

وفاته : كانت وفاة هذا الفقيه الكبير فى سنة ١٥٧ هـ ، وقد ذكرها أبو الفداء فى حوادث تلك السنة ، وتوفى وهو فى الحمام فى بيروت ، وقبره على ما ذكره أبو الفدا فى قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس ، وأهل القرية لا يعرفونه ، بل يقولون هاهنا رجل صالح

والسبب فى وفاته على ما جاء فى ابن خلكان ، أنه دخل الحمام ، واتفق أن صاحب الحمام كان مشغولاً فأقفل عليه الباب ومضى ، فلما عاد فتح الباب فوجده قد فارق الحياة . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان إمام أهل الشام غير مدافع

هذا وإن ما ذهبت إليه فى هذه الكلمة ليس إلا محاولة بسيطة أرجو إن لم أوفق فى نتائجها ، أن أكون قد وفقت فى الطريق الذى سلكته . فالبحث فى اعتقادى ناقص مبتسر ، لأنى لم أطلع على كل ما كتب عن الأوزاعى فقد تكون هناك كتب كثيرة ، لم تنشر أو لم أوفق الى العثور عليها . وعسى أن تحفز هذه الكلمة بعض الباحثين من الفضلاء فيوفى هذه الترجمة ويحلل هذا المذهب إحياء لتراثنا العلمى الذى ذهبت به الأحداث والقرون

القدس

عبد القادر على المجاوى
بكلوريوس فى العلوم

نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لا تحدّ — من الانسان في الله الى الله في الانسان — والأدب مهما جعل لامعنى له إلا على قدر مايكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء »

درس النعيمى جبران بهذا المقياس ، ويدرس الأدب كله فى جبران ، والأدب عنده هو مثل أعلى إذا ربط الانسان به حياته اللحمية والروحية ، وهذا مقياس جاد صارم ، لايجعل من الأدب ملهاة ، وإنما ينزله منزلة الحياة . . . وأنت واقع فى الكتاب على فصول متنوعة ، هى بجملتها حياة جبران ، وهى بمجموعها تاريخ ذلك الصراع المادى لتُذعن له المادة ، وذلك الصراع الروحى المستمر لينقّى روحه من أدرانها وشهواتها الأرضية . وفسادها أن صاحبهما يحاول أن يفوز فيهما فى وقت واحد

فى الكتاب تاريخ جبران الأنسان ، وجبران الفنان ، وجبران الشاعر ؛ تاريخ هؤلاء الأشخاص المفترقين تحت لواء عقل واحد . يمشى كل منهم فى طريق ؛ ولا يدرى أين سلك رفيقه . وعقل جبران يظن أن نفسه هادئة مطمئنة — ونفسه منشقة على نفسها . جبران الأنسان لا يلتقى وجبران الشاعر الفنان إلا بالخيال ؛ والخيال وحده لايكفى إذا لم يقو على الارادة ، ويجنحها بجناحيه ويطير بها الى حيث شاء

رسم النعيمى فى كتابه لجبران وجوهاً كثيرة : منها وجه جبران الفنان ، ووجه جبران الانسان ، ووجه جبران الطافح تمرداً ، ووجه جبران الهادئ الذى جعدته السنون وارتسمت فى غضونه الحكمة . أما جبران الفنان فأنت واجده فى كل أدوار حياته التى أثرت فيه وأثر فيها ، ومهما كان من تباين بين شعره وفنه فالرجل استطاع أن يكون . . . برغم المصاعب التى اعترضته وبفضل المصادفات التى خلقت ذلك وفرضت ذلك . جبران الشاعر كغيره من الناس تسكره الشهرة وتستهويه لمعانها ، وهو بعد جهاد عنيف استطاع أن يبلغ بخياله تلك القمة التى دعاها الناقد قمة « المصطفى [1] » حيث أشرف جبران على الوجود ، ونظر اليه بخياله الخالص من تأثير « نيتشه » وغيره ، ووقف على معنى « الازدواج » فيه . ولكن جبران الانسان لم يكن برغم سمو خياله — عالياً سامياً كما تصوره لنا ريشته وبراعته ، فهو نسر نشيط كبلته قيود الأرض وشهوات المادة ، لم يغنه الفن شيئاً ، بل زاد عذابه عذاباً ، لأنه كان يكشف لعينيه قباب ذلك الوجود الذهبى ويمنع قدميه الملوثتين من الدخول . . . جبران الانسان تغلى فى صدره شهوات ابن المادة ، وهو أنانى ونصير حب يود أن يكون فيه محبوبه عبداً ؛ وهو طالب شهرة لم يستطع فنه أن يحرره من شهرة الناس الذين يكرههم : لا يخرج من — سومعته [1] إلا جبران الفنان ، أما جبران الانسان فهو راسٍ على صدره لا يفر منه الا اليه . . .

هذا الاختلاف بين شخصين مندمجين فى شخص واحد هو موضوع الكتاب

يتساهل النعيمى مع جبران الفنان وحق له أن يتساهل أمام فنه المرن ونزعته الشخصية مهما مازج فنه من عوامل غريبة عن فنه ، أما جبران الانسان فلم يرحم ضعفه ولم يستره بستار الرحمة ، لأنه يرى أن رحمته تقوض معتقده الأدبى وتهدم نظرته الفلسفية ، وإنما يعتقد أن العبقرى الحقيق لا يجعل من نفسه شخصين مختلفين ، ويرى أن الفن الصحيح هو مانق النفس من أدرانها وأسوائها ، فهل نق جبران الفنان جبران الانسان ؟

عمل جبران الفنان على تطهير جبران الانسان ، ورفعه من الهوة إلى القمة . ولكن قدمى جبران الانسان كانتا من قصب ، لا يكاد صاحبهما ينهض عليهما ويمشى قليلاً حتى تتحطما ويلبث مكانه . . . أليس فى فرار ميشلين [2] ابنة التراب ! من وجه جبران الفنان ابن السماء ! أكبر خزى لجبران ؟ أليس فى تألم الفتاة التى جاءت لتحيي « صاحب النبي » اعتقاداً منها أنه سيكون أسمى من النبي الذى خلقه أكبر هزيمة لجبران الفنان ؟ وهكذا ظل جبران فى نزاع مع نفسه حتى قضى ولم يقض لبانته

قد يكون فى هذا التصريح بعض ما يجرح ، ولكن الحقيقة . . . الحقيقة الانسانية لا تعرف المراعاة ، ولوكان جبران فناناً عادياً لما قاسه النعيمى بهذا المقياس الدقيق الذى لا يطبق

(١) كتاب وضعه جبران بالانجليزية

(١) إشارة إلى صومعة جبران
(٢) محبوبة الشاعر

إلا على العباقرة المختارين والنوابغ الموهوبين

ألم يكن « فيخت[1] » يغلب فيه الانسان الأخلاق على الانسان الفيلسوف ؟ والانسان الاخلاق يغلب عليه الانسان المجرد ؛ وهو كلما تجرد ونزع عنه هذه الأقماط بدا أدنى إلى حقيقة السمو والكمال العارى كما كان يرتفع فيه معه متناسباً مع ارتفاع نفسه . وهذا هو المثل الأعلى الذى يطلب النعيمى إلى كل فنان أن يسمو إليه بعقله وجسده وفنه ؛ لا أن يقسم نفسه أقساماً ، يضع كل قسم منه حيث يريد

« ولا يكفى الانسان أن يبصر النور ليكون مستنيراً ، بل عليه أن يجعل ذلك النور هاديه الأوحد فى حياته ، وإن فى ذلك وحده سراً لانعتاق الأبدى من جحيم التناقضات ، أما السبيل إلى ذلك فى نبذ كل ما يحجب عنا النور من شهوات أرضية ، ونزعات زمنية وشعور بالفردية التى لا تأتلف وروح الكلية الشاملة[2] » وطبقاً لهذا الاعتقاد يبين النعيمى جانباً من حياة جبران ـ لا كل جوانبه ـ التى حالت دونه ودون الانعتاق ، أو التكران المؤدى إلى الانعتاق

وهكذا تطلع فى هذا القسم على حياة مستقلة بذاتها عن الانسانية ، ومتصلة بذاتها مع الانسانية ؛ عارية كاسية ، وإنما هى الحياة كلها بلحمها ودمها وروحها الذى لا يدرك

* * *

— ٢ —

جبران الثائر وجبران الرهبانى

لا يقف الناقد على درسه على جبران الفنان وجبران الأنسان ، وإنما هو يعالج — من ناحية ثانية — المؤثرات التى أثرت فى جبران ، والعوامل المقدرة وغير المقدرة ، والمتصلة — كما يقول الناقد — بمكوك الحائك الأكبر وغير المتصلة . فهو يولد مع جبران ويدرج معه من سياحة إلى سياحة ، ومن فشل إلى رجاء ومن رجاء الى فشل . طوراً ينطق جبران عما نطق ، وتارة ينطق عن جبران عما لم ينطق . وفى هذه المنطقة يلتقى النعيمى الناقد بجبران الفنان المجرد ، لا النعيمى الحامل المثل الأعلى لجبران الضائع وراء نوازعه الأرضية . ولا يمكننا أن نقف على قيمة جبران الأدبية إلا إذا تعمقنا فى أحناء حياته . فجبران — فى كتاباته — ذو وجوه متعددة ، منها وجه المحب المنهزم ، ووجه المتمرد الثائر ، ووجه الهادئ الساكن ، ووجه المتصوف السامى ، وصاحب هذه الوجوه رجل واحد هو جبران . والنعيمى يستعرض هذه الوجوه وجهاً وجهاً دارساً عواملها محللاً ألوانها

« يتبع » خليل هنداوى

(١) فيلسوف ألمانى وردت ترجمته . (تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا)

(٢) من رسالة لنعيمة إلى الكاتب